

## الجزء الثاني

### المثقف العربي .. والآخرون

١- آخرون داخل كل وطن على حدة :

■ حالة لبنان

■ حالة السودان

٢- « آخرون » داخل أقطار العالم العربي ، وما هم بـ«آخرين»:

■ الأقليات المسيحية في الوطن العربي

■ البربر في دول شمال أفريقيا العربية

■ الأكراد بالشرق العربي

■ اليهودي والإسرائيلي

٣- « آخرون » على مستوى الأقطار العربية الأخرى

٤- « الآخر » خارج العالمين العربي والإسلامي :

■ الآخر في الحضارات الغربية

■ الآخر في الشرق الأقصى

■ حضارات لها علاقات خاملة مع العالم العربي

٥- الخلاصة

٦- كلمة الختام



## المثقف العربى . . . والآخرون

### تمهيد

من غير الممكن إعطاء وصفة «سحرية» للمثقف العربى - أو حتى لغير العربى - يستخدمها فى علاقته مع «الآخر»، فنحن نعيش فى مرحلة «مفصلية» قلقة من تاريخ العالم، ومنذ تفكك الاتحاد السوفىيىتى، وزيادة نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية كقطب رئيسى فى العالم، ومنذ أن دخلت عالم الثقافة عبارات: العولمة، وآليات السوق، ونهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وثورة المعلومات وغيرها، والعالم العربى يعيش كل هذه المتغيرات الهائلة، فضلا عن آثار حروب الخليج وتداعياتها، ومرحلة المخاض والتعثر حول «التسوية النهائية» المتوقعة للصراع العربى - الإسرائيلى، ومحاولة كل طرف الحصول على مكاسب تعطيه موقعا متميزا وإمكانية التفوق والسيادة على المنطقة أكثر من الطرف الآخر، نقول فى إطار كل هذا سيجد المثقف العربى أنواعا مختلفة من «الآخرين»، ربما يكون لكل منها ملامح مختلفة تضى الطريق، أقسمها إلى مجموعات أربع على النحو التالى:

### أولا : « آخرون » داخل كل وطن على حدة :

لكل قطر عربى خصوصيته السياسية والثقافية والمجتمعية ، وينعكس ذلك على مناخ قبول أو رفض الآخر، ويصعب فى مثل هذه الورقة أن

نقدم دراسة أو رؤية لكل قطر عربي، فهذا أمر حساس، ولا يسمح به المناخ العام للوطن العربي حالياً، وأكتفى بتصنيف الوطن العربي، بالنسبة للقضية التي نحن بصددنا، إلى ثلاث مجموعات رئيسية على النحو التالي:

(أ) نظم أحادية التوجه: حيث تسيطر الدولة أو الحزب أو المؤسسات القابضة على الأمور الثقافية والفكرية، وهذه الدول معروفة بشكل عام بين المثقفين، لا داعى لتسميتها فهذا أمر لا يتفق مع الممارسات الثقافية العربية، وأتعاطف شخصياً مع المثقفين فليس أمام المثقفين المقيمين بشكل دائم في هذه الأقطار إلا قبول «الآخر» الذى تقبله الدولة. ورفض الآخر الذى ترفضه الدولة، وإلا فلا سبيل سوى الهجرة خارج القطر وأحياناً خارج الوطن العربى كله وأعرف نماذج كثيرة لمثقفين عرب - من هذا النوع - يعيشون فى أوروبا هرباً من قنهر أوطانهم الراضة لآخرين وبعض منهم موجودون فى هذه الندوة.

(ب) نظم لديوا هامش معقول من الحرية الفكرية : وهنا يكون توافر قناعة المثقفين بقبول المثقف الآخر أمراً له أهميته، لأن ذلك سوف يسهم فى توسيع مسطح الديمقراطية الحالى شيئاً فشيئاً، وخلق مناخ ثقافى يفتح حواراً صحياً، غالباً ما يودى إلى دعم التماسك والوفاق الوطنى، فيكون «الاستقرار على أسس أكثر رسوخاً» من خلال «مؤسسات» تنمو وتتقوى مع الوقت، ويكون المثقفون قد أدوا دورهم التاريخى فى مسيرة التقدم.

(ج) دول ومجتمعات قد دمرت وقاست من جراء «رفض ونفى الآخر»: ويوجد بالعالم العربي دول عدة بهذا الوضع، أكتفى بنموذجين صارخين جديرين بالطرح والمناقشة في مثل هذه الندوات الفكرية الحرة وهما:

### □ حالة لبنان :

منذ الاستقلال عام ١٩٤٦، عاشت لبنان وضعًا مجتمعيًا غير متكرر، يحمل داخله تناقضات عدة منها انبهار قطاعات من المجتمع بالحضارة الغربية، وحماس قطاع آخر للانتماء العربي، وقطاعات عدة تشعر بالأمان في الانتماء الديني، فجاءت الصياغة السياسية والثقافية غير ممكنة إلا من خلال نظام حكم مبنى على توزيع السلطة بين الطوائف المعتمدة رسميًا، مع هامش واسع من الحريات العامة والشخصية والاقتصادية.

وكان أن تفجرت الحرب الأهلية من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٩٢، ولم يكن من سبيل إلا العودة إلى النظام الطائفي مرة أخرى، مع توازنات جديدة ولدتها الحرب، وأراه وضعًا قلقًا، لأنه توازن غير مستقر (ليس بسبب توازنات القوى الداخلية) وإنما بموازين سياسية وعسكرية حساسة ودقيقة لدول مجاورة في المشرق العربي وستتغير في المستقبل القريب.

واقترح على مثقفينا - وهم من خيرة مثقفي العالم العربي - تبني ونشر ثقافة وفكر قبول «الآخر» بما في ذلك «البديهيات الإنسانية» التي جاءت في الجزء الأول من هذه الورقة. فالتغيير في لبنان سيكون من خلال المثقفين أكثر منه عن طريق السياسيين أو العسكريين. فإذا اتفق

المثقفون تدريجياً على صياغة «الأرضية المشتركة» فستختفى تدريجياً الطائفية وتحل محلها مفاهيم المواطنة.

### □ حالة السودان المعرض للتفكك :

أكتب هذه الأسطر في أواخر يوليو عام ١٩٩٩، في وقت متزامن مع كتابة مقالتيين بجريدة «الأهرام» حول «المسألة السودانية»، واحتمالات «تدويلها» من خلال خطة أمريكية ظهرت معالمها بصدور قرار من الكونجرس الأمريكى فى ١٥ يونيو عام ١٩٩٩. ولذا فإننى غير متيقن مما ستؤول إليه الأمور وقت انعقاد هذه الندوة العربية. فالسودان ليس لديه أزمة «آخر» واحدة وإنما «آخرون» عدة<sup>(٥)</sup>، بسبب أن به نحو ٥٠٠ (خمسمائة) تكوين عرقى أو اثنى كما لديه نحو ٥٠ (خمسين) لغة موثقة، ولذا صارت «المسألة السودانية» من أعقد المشاكل فى العالم بسبب تأخر عرض ذهنية «قبول الآخر» والتي كان من الممكن أن تبدأ مع الاستقلال عام ١٩٥٦ والأمل للعقود - إن كان هناك بقية من أمل - على المثقفين لسودانيين لصياغة «الهوية السودانية» والأرضية المشتركة فى هذه الغابة من الانتماءات والدماء.

فالمثقفون أقدر من السياسيين على صياغة الأفكار حول التنوع الثقافى ومشروع الدولة الوطنية ثم معضلات الهوية فى مجتمع متعدد الثقافات،

---

(٥) عقب أن كتبت مقال بـ «الأهرام» عن السودان فى ٧ ديسمبر ١٩٩٩ جاء الانقلاب وإعلان الأحكام العرفية يوم ١٢ ديسمبر لتؤكد أن الصراعات المجتمعية على أشدها، ومن هنا صار طرح ورقة «نداء لمهتدين» للزعيم الصادق المهدي، واجبا فكريا ملحا، فإزمة السودان فكرية ثقافية حضارية، لو عمها فكر «قبول الآخر» لكانت على بداية الطريق إلى السلام والمعاشة مع الآخر فى «كدفدالية».

وإيجاد صياغة للمعايشة بين العروبية والأفريقية وغيرها، ولعل مشاركة المثقفين العرب في هذه الندوة تمثل إضافة تخرج السودان من التدويل أو التفكك.

## ثانياً : « آخرون » داخل أوطان العالم العربى وما هم بـ«آخرين» :

يمر العالم العربى بمرحلة انتقالية دقيقة تحدد ملامح مستقبل الواقع العربى فى الألفية الميلادية الثالثة. فالغالبية العظمى من العالم العربى تنتمى إلى الهوية «العربية الإسلامية» والتي تعتبر الرافد الرئيسى والغالب على الثقافة العربية. لكن ذلك لا يخفى أن هناك عشرات من الانتماءات الأخرى - ليست بالضرورة موضع اهتمام الأغلبية - على الرغم من أن هذه «الأقليات» موضع دراسة واهتمام من دول وثقافات غربية تؤدى أحيانا إلى مآزق سياسية وثقافية.

وعلى سبيل المثال، أكتفى بطرح مشاكل لنماذج «الآخر» فى العالم العربى وهم ليسوا بـ «آخرين» :

### ( أ ) الأقليات المسيحية فى الوطن العربى

ساهمت الأقليات المسيحية فى لبنان وسوريا والعراق ومصر فى صياغة الثقافة العربية الإسلامية بدرجات متفاوتة عبر الألفية الميلادية الثانية، بما فيها المساهمة فى حركة الترجمة العربية الواسعة فى القرون الأولى للإسلام عندما تم نقل الحضارات الإغريقية والبابلية والفرعونية والمسيحية السابقة على الإسلام إلى العربية وكانت أحد أسباب النهضة الثقافية فى تلك الحقبة ومنها نقل الغرب وهو معترف بذلك.

ومع ازدياد نفوذ وسيطرة الثقافة العربية الإسلامية على معظم الأقطار العربية في الأحقاب القليلة الماضية وبما يطلق عليه عبارة «الصحوة الإسلامية»، تولدت حالة من القلق لدى هذه الأقليات المسيحية على تباينها واختلاف مسمياتها من الأقباط والموارنة والسريان والروم على اختلاف مذاهبهم (الأرثوذكسية والكاثوليكية والبروتستانتية). ومن ثم فإن قضاياها وقلقها - لمنع سلبيتها أو عجزتها إلى الغرب - من الأمور الواجبة الطرح على المستوى الثقافي، والواقع أن الوصول إلى تقنين المساواة من خلال «المواطنة» أمر ممكن بسبب أن ثقافة «قبول الآخر» موجودة ومتوافرة تاريخيا، ولكنها في حاجة إلى تطوير ودفء إيجابي، ليتحول القبول إلى اكتشاف الأرضية المشتركة مع المحافظة على خصوصيتها الثقافية، فالثرء هو في التنوع وقد أشرنا إلى ذلك تفصيلا في الجزء الأول.

## (ب) البربر في دول شمال أفريقيا العربية

تعانى الدول العربية فى شمال أفريقيا - خاصة الجزائر والمغرب - من وجود لغتين وثقافتين (وربما سلالتين) هما العروبة من جانب والبربر بلغته وثقافته الأمازيغية من جانب آخر. وربما يعود الصراع الدموى الذى يجرى داخل اجزائر من سنوات - ضمن عوامل أخرى - إلى الصدام أو الصراع بين هاتين الثقافتين، ومن ثم فمشكلة البربر فى حاجة إلى طرح ثقافى، فهو «آخر» ينبغى أن يكون له «قبول» فحوار وصولا إلى المواطنة، حيث أثبتت الممارسة العملية أن الاعتماد على القهر العسكرى

وحده لم يولد إلا مزيدا من الدماء، ومن ثم فالطرح الثقافي وقبول الآخر هو الطريق الأصعب الطويل ولكنه المضمون.

### (ج) الأكراد فى المشرق العربى

استطاع عبد الله أوجلان الزعيم الكردى المعروف، من خلال نضاله، أن يفرض على العالم حقيقة أن للأكراد هوية وأرضا وثقافة، فهم كشعب يقطنون موقعا متوسطا بين دول قديمة وراسخة هي: تركيا وسوريا والعراق وإيران، أى دولتين عربيتين ودولتين إسلاميتين، إحداهما تدعى أن دستورها علمانى ولكن واقعها «ثقافة إسلامية» على الرغم من أنها لا تتكلم العربية، والأخرى دفعتها ظروف فصارت «جمهورية إسلامية» وهى أيضا لا تتكلم العربية. وسيقوم الأستاذ/ محمد صادق الحسينى بالتعقيب على هذه الورقة (وهو ينتمى إلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية) ومن ثم فإن لرأيه ورؤيته فى هذه الندوة ما يضىء الطريق فى قضية «الآخر» عموما، الكردى خصوصا فهناك الأرضية المشتركة الإسلامية حتى وإن اختلفت اللغة والثقافة. وربما يكون من الإنصاف - فى مثل هذه الندوات الفكرية - أن يطرح أمر المساهمة فى قبول الأكراد كجماعة من حقها تكوين كيان مستقل، أو نشر ثقافة «قبول الآخر» فى هذه الدول المتجاورة حيث الأكراد «أقلية» مقبولة، وصولا إلى المواطنة.

### (د) اليهودى أو الإسرائيلى

عاش اليهود فى الوطن العربى - فى الحقبة الحديثة نسبيا - فى أوضاع متتالية كانت أولاها - من الناحية التاريخية - عندما كان

«اليهودى الآخر» مقبولا فى معظم الأقطار العربية الإسلامية، وبالذات فى اليمن والمغرب ومصر والعراق، وكانوا مساهمين كوطنيين فى كل ألوان الثقافة العربية وكن لبعض منهم شأن وخطوة فى تلك الدول بالذات إلى أن تم تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨، وإنشاء دولة إسرائيل، فهاجر إليها تدريجيا معظم اليهود العرب

وبعد إنشاء إسرائيل تغير الوضع كثيرا وصار هناك تضيق لأنواع ثلاثة رئيسية من الإسرائيلى اليهودى إذ يوجد داخل إسرائيل «آخر» فى أشكال كثيرة، حيث الأشكناز والسفرديم، وحيث مذاهب وفرق دينية وعرقية متباينة ليس هذا مكان عرضها، وأتصور أننا فى حاجة إلى إلقاء الضوء على التركيبة الثقافية والمجتمعية لإسرائيل، لأن هذه الدراسة قد تلقى الضوء على أسلوب التعامل مع «الآخر» فى إسرائيل. وعلى سبيل المثال، لو كان إسرائيلى متمسكا بديانته، وهى الأساس لذهنيته وبوصلته فى الحياة، فإن التعامل مع هذا «الآخر» يكون صعبا، لأن فلسفته مبنية على نصوص دينية فى مقدمتها أنه يهودى، ومن ثم يتولد لديه إحساس بالتعالى على العرب مسلمين ومسيحيين بسبب أن «اليهود هم شعب الله المختار». وبالتالى يتولد لدى لثقاف العربى على الجانب الآخر إحساس مقابل بأهمية انتمائه الدينى كفعل أو رد فعل، فيردد النصوص المقابلة، «إن الدين عند الله الإسلام» وأننا «خير أمة أخرجت للناس» وغيرها. ولذا فإن هذه الذهنيات بين اليهودى والمسلم والمبنية على أساس دينى تبدأ بالرفض الذى قد يقود إلى النفى، فلا تطبيع بل قطيعة قد تعيد مناخ الحروب فى وقت لاحق إذا كانت الظروف المحلية والعالمية مواتية وقتها. وهذه هى الحالة الثانية والتي تؤدى إلى الرفض المتبادل.

وهناك نوع آخر للمقيم فى إسرائيل وهو «العلمانى» غير المتدين وصولا إلى «الملحد» الذى ينكر كل الأديان أصلا، ولكن لديه إحساسا بعلو ثقافة اليهودى على أساس «عنصرى»، وهى ذهنية «الصهيونية» فيتولد لدى العربى فى المقابل إحساس بأهمية الحضارة العربية فى بناء رقائق الحضارة الإنسانية فى مجملها. وهو أيضا موقف غير صحى لأن كلا منهما رافض للآخر، ولكنه رفض مؤقت لتأثره بالمتغيرات السياسية السريعة فى المنطقة، ويعيشان حالة ذهنية قابلة للتغيير لأن منهجها فى التفكير مبنى على «العقلانية» التى ترى أن الصراع العربى - الإسرائيلى له بعد حضارى، أى تنافس فى الارتقاء، فتكون المناقشة صحية، ولا تقاوم «الحوار» مع الآخر، وبين الحين والآخر قد يحدث غليان فى الموقف السياسى العام فى المنطقة فيقود إلى ذهنية «فاشية» تنتهى بالصراع وصولا إلى الحرب وهو احتمال قائم على المدى البعيد.

وقد يوجد نوع ثالث مثل العرب (المقيمين من قبل ١٩٤٨) الحاصلين على الجنسية الإسرائيلىة ومعظمهم ليس «آخر» بالنسبة للمثقف العربى، كما قد يكون هناك إسرائيلى منتميا إلى بعض فرق اليسار، ولا يرى حلا لإسرائيل إلا بالمعايشة مع العرب ومن ثم فليديه «قبول الآخر».

وبين هذه التصنيفات المختلفة يتحدد ويتجدد موقف المثقف العربى فى التعامل مع مواطنى «إسرائيل» وهى قضية خلافية وستظل كذلك لفترة طويلة قادمة متأثرة بالمتغيرات السياسية سريعة الحركة فى السنوات القليلة القادمة.

### ثالثا : «آخرون» على مستوى 'الأقطار العربية الأخرى

يحسن للمثقف العربي أن يتعامل مع أخيه المثقف العربي الذى ينتمى إلى قطر عربى آخر بنظرة متفهممة للخصوصية الثقافية لهذا القطر بهدف اكتشاف الأرضية اشتراكية بدلا من «التفتيش» عن نقاط الخلاف فى اتجاه الرفض أو النفى، لأن مستقبل الأمة العربية - طال الأمد أم قصر- هو فى التعاون الاقتصادى والثقافى لأنه الركيزة لأى نوع من «التكتل الاقتصادى» أو الوحدة السياسية. ولناخذ من النموذج الأوروبى مثلا يدرس كما يمكن أن يحتذى. ولن يستطيع القادة السياسيون بناء جسور التفاهم والتقارب وتجاوز «جروح» الماضى البعيد أو القريب، إلا من خلال تقارب المثقفين، فهم أكثر حرية ومرونة من متخذى القرار - ومن هنا كان تقديم الأفكار الواردة فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

والمشاهد فى معظم لقاءات المثقفين لعرب وجود حساسيات مرهفة تؤدى إلى تفجر وحدة النقاش بين المثقفين المنتمين إلى أيديولوجيات مختلفة، فالكراهية مازالت موجودة وإن كانت مكبوتة بين مجمل التيار الدينى والأصولى<sup>(٥)</sup> من جانب وبين مجمل التيارات الليبرالية واليسارية

---

(٥) وفى هذا الإطار، وعندما قرأت تعقيب الأستاذ محمد صادق الحسينى على هذه الدراسة، والتى تقدم رؤية نقدية إيجابية - من خلفية دينية شيعية - رأيت أن نعم الفائدة، بأن أنشر أيضا - فى هذا الكتاب - ورقة ورؤية الصادق المهدي، باعتباره فكرا له نبع سنى تراثى فى السودان الشقيق، لعل التفاعل والتباين يولد حوارا أوسع داخل التيار الإسلامى فى مجمله، كمرحلة أولى يتبعها حوار أوسع داخل الوطنى العربى الإسلامى، فننتقل تدريجيا إلى مرحلة «حوار الحضارات».

من جانب آخر. والتصور أنه قد آن الأوان - من خلال مثل هذه الندوات الفكرية - لأن تتولد أرضية «قبول الآخر». ففي ذلك فائدة وآثار حميدة على المناخ الثقافى العربى العام، وسوف ينعكس هذا التوجه على توسيع الممارسات الديمقراطية فى الأقطار المختلفة. فالواقع العربى فى هذه المرحلة لن يتغير بين يوم وليلة، فالتفاعل بين مثقفى كل قطر فى إطار قبول الآخر (كما ذكرنا فى بند أولا فى هذا الجزء الثانى) ثم دعمه على مستوى الأقطار العربية، سيوفر مناخا مختلفا ويفجر طاقات إبداعية فى كافة المجالات الأدبية والثقافية والفنية.

### رابعا : «الآخر» خارج العالمين العربى والإسلامى

من غير الممكن، فى مثل هذه الورقة محدودة المساحة، أن نتعرض للموقف خارج الوطن العربى والإسلامى، فهذا يقودنا بالضرورة إلى مؤلف يناظر مؤلف نظرية صموئيل هانتجتون «صدام الحضارات وإعادة صياغة العالم» وفى مواجهته فدراسات الحضارات العالمية الحالية معروفة ومتوافرة فى مؤلفات كثيرة، وهى مقسمة من الناحية الجغرافية إلى الحضارات المؤثرة حاليا فى ثقافة العالم - ولكل منها خصوصيتها وخصائصها - كما أنها مدروسة من الناحية التاريخية حيث كانت الحضارات القديمة فى مصر وبين النهرين والهند والصين وربما المكسيك. وآثرت - إيجاز شديد - أن أشير إلى ما يمكن أن تكون عليه نظرة المثقف العربى إلى «الآخر» فى الثقافات أو الحضارات الرئيسية التى ذكرها هانتجتون أو غيره على النحو التالى:

## ( أ ) « الآخر » فى « الحضارات الغربية »

توجد علاقات تاريخية بين العالم العربى وبعض الدول فى أوروبا، فإنجلترا (أو بريطانيا العظمى) كانت محتلة أو مؤثرة - وحتى الآن - فى ممارسات الحكم واللغة والثقافة فى دول عربية كثيرة، ولفرنسا تأثير ملحوظ على دول شمال أفريقيا من تونس ثم الجزائر فالغرب ثم فى لبنان وربما سوريا، وكانت ليبيا تحت حكم الاستعمار الإيطالى، ويبدو تأثيرها جليا على المعمار وتخطيط المدن فى طرابلس عاصمة الجماهيرية العظمى حتى الآن.

فى العصر الأحدث وعندما زاد نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية بعد تفكك الاتحاد السوفيتى، وسع ظهور البترول كمورد رئيسى رخيص للطاقة زاد نفوذ الثقافة الأمريكية فى معظم دول المنطقة بدرجات متفاوتة. ومن ثم فليس من سبيل إلا التعامل مع « الآخر » المنتمى إلى الغرب. والملاحظ أن هناك رؤى مختلفة للمثقف العربى بالنسبة « للآخر » فى الغرب، فالبعض منبهر بما وصل إليه الغرب من تقدم علمى وديمقراطية متمثلة فى التداول السلمى للسلطة، وهو أمر مفتقد فى العالم العربى بشكل عام، وهناك مثقف آخر رافض للغرب، ويعتبره غازيا يحاول فرض ثقافته وأسلوب معيشته علينا مقاومه ورفضه، وثالث لا يجد سبيلا إلا فتح الحوار وبناء جسور معه وإلا همشنا.

## (ب) الآخر فى الشرق الأقصى

يوجد قبول وجدانى لدى المثقف العربى مقرونا بالتقدير والرغبة فى معرفة المزيد عن « الآخر » المنتمى إلى حضارات الشرق الأقصى على

اختلافاتها من البوذية إلى الكنفوشية إلى الشنتو. فاليابان نموذج لدولة تنتمي إلى أقصى الشمال «الشرقي» واستطاعت أن تتجاوز التخلف «الشرقي» بكل صوره وتنافس الغرب في عقر داره. وهى مثال فريد نحن كعرب فى حاجة لأن نعرف المزيد عن جذوره الثقافية. وغالبا ما تكون اليابان هى المبادرة بمعرفتنا، ويقف اهتمامنا غالبا على الانبهار بإنجازاتها التكنولوجية والاقتصادية دون فحص الجذور الثقافية وهى كنز نحن فى حاجة لفتحه.

ثم هناك الصين أكثر دول العالم تعدادا وكثافة سكانية، وقد تجاوزت الانتماء العقائدى الماركسى تدريجيا ومزجت التراث بالمعاصرة. ويتطلع إليها المثقف العربى بإعجاب ممثلة فى «التنين» الذى يعمل فى صمت وبإصرار لكى يوقف زحف الحضارة الغربية الكاسح. وللصين حضارة لها خصوصيتها الثقافية بسبب أنها رقيقة زمنية واحدة سميقة مستمرة لآلاف السنين بذات التركيبة العرقية واللغة والعقيدة الدينية بخلاف مصر حيث توجد رقائق متتالية من الحضارات الأربع: الفرعونية - اليونانية الرومانية - المسيحية القبطية - الإسلام، فقد تغيرت الديانة واللغة فى مصر - عبر تاريخها الطويل ثلاث مرات، وهو أمر شرحته تفصيلا فى كتابى «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية»، ومن ثم فالصين كحضارة نعتبرها نمودجا لآخر ينبغى أن نفتح معه حوارا وفكرا وثقافة واقتصادا ونبنى جسورا بقدر أكبر مما هو الآن.

وينطبق الشيء ذاته - مع خلافاط طبيعية - على علاقاتنا مع باقى دول الشرق الأقصى مثل: الهند - ماليزيا - كوريا - تايوان - إندونيسيا وغيرها.

## (ج) حضارات لها علاقات « خاملة » مع العالم العربي

عندما قام عبد الناصر بالمساهمة مع نهرو وتيتو وتشواين لاي بتكوين كتلة « عدم الانحياز » انفتحت مصر والعالم على حضارات كثيرة. ولكن مع تغيير التوازنات العالمية، ضمرت صلة العالم العربي الثقافية مع كل من أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وهو أمر أراه مهما للطرح لأن المثقفين طليعة بناء الجسور مع الحضارات الأخرى، خصوصا أن أفريقيا - ومن خلال السودان - هي امتداد طبيعي لصلات ثقافية. وقد يكون بناء جسور ثقافية بين مجمل العالم العربي وحضارة أفريقيا والسودان عاملا مساعدا في حل مشاكل الهوية في السودان، وإيجاد صياغة توفيقية بين العروبية والأفريقية، ومن رجه نظرى الشخصية، فإن العديد من مشاكل مصر سيكون حلها في انفتاح أكبر على أفريقيا، فمن المؤكد أن الجسور الثقافية هي التمهيد للتعاون الاقتصادي.

أما دول أمريكا اللاتينية، ففيها جاليات ذات جذور عربية لها نفوذ وحضور وقد لاحظت - بعد حصولي على جائزة سيمون بوليفيا، محرر أمريكا الوسطى - أن الدبلوماسيين والمثقفين هناك يشكون من ضعف الصلات الثقافية بين العالم العربي وأمريكا اللاتينية، والمقترح أن تبنى جسور ثقافية من خلال عدد ضخم من المصريين الملمين باللغة الأسبانية وعدد مناظر من الأسبان الملمين باللغة العربية.

## المخلص

بين مئات وربما آلاف من المجموعات البشرية المتباينة بين الحضارات وداخل الأديان والأعراق، قد توجد مشاعر إيجابية ممثلة فى «قبول الآخر» وهذه الحالة ليست استاتيكية بل ديناميكية، فالقبول يتحول إلى «حوار»، ومع استمرار الحوار يتحول إلى «فهم» الآخر ثم استحسان بما لديه من اختلاف، وسيجد المرء استمتعا بمعرفة تفاصيل التباين والتنوع، وبعدها يتحول هذا الثراء إلى «معايشة» فاكتشاف «الأرضية المشتركة» التى تجمع البشر أكثر مما تفرقهم، ومن هنا تتولد مفاهيم «المواطنة» أى الانتماء إلى الوطن ككل وهو أرقى من الانتماء الدينى أو العرقى، وهنا تجنى عبارة «الوحدة الوطنية» أو الوفاق الوطنى تجسيدا للمعايشة والتى غالبا ما تكون مقرونة بالود المتبادل.

أما إذا سادت ثقافة ومفاهيم «رفض الآخر» كما فى حالات كثيرة مثل حالة السودان، من خلال إثارة وطرح خلافات وعداوات تاريخية قد مضت وانتهت، يصير استدعاؤها وتضخيمها لأسباب سياسية أو لدعم نظم شمولية لديها مصلحة فى خلق التماسك الداخلى وفرض نفوذ ايدولوجية الحكم السائدة من خلال كراهية الآخر ورفضه. فإن المجتمع قد يدخل فى عملية Process سلبية تزداد فيها الكراهية ويتحول الرفض " محاولة النفى، أى اجتثاث جذور «الآخر» ومنع حقه فى المعايشة.

وربما كان فى مثال تعامل تركيا مع الأكراد نموذجا لذلك، إذ تجد الحكومات والشعوب التى دخلت فى هذه الحلقة المفرغة مستعدة لإشعال حالة حرب عند أى مناسبة يمكن افتعالها. أما حالة اللامبالاة بالنسبة للآخر فهى مثل حالة خط التعادل الكهربائى أو كثيرا ما يشار إليها بعبارة «دع الفتنة نائمة» وغالبا ما لا تستمر هذه الحالة طويلا، إذ تتحرك إما إلى الطريق الإيجابى فتصل إلى مرحلة «قبول الآخر» وما بعدها، أو تتجه إلى السبيل السلبي فتدخل حالة رفض الآخر، وصولا إلى نفيه ثم الحرب ضده، وهو ما أشرنا إليه سابقا.

وبنظرة مستقبلية متفائلة أتوقع أن تنحسر موجة كراهية ورفض الآخر السائدة حاليا فى مواقع كثيرة ويحل محلها إيجابيا ثقافة وفكر «قبول الآخر»، ثم تتسع قبولها كـ«أيدولوجية» أكثر رقبيا. إذ سيكتشف الإنسان أن فى الاختلاف والتباين والتنوع جمالا وثراء، فيتحول الصراع الثقافى إلى تباين وتنوع وكأنه لوحة من «الموزاييك» تحمل ألوان الثقافة والمعرفة وكذلك الخصوصيات الثقافية المختلفة، فيصير الوطن أو المنطقة فى شكل حضرة «الموزاييك» ذات الألوان المختلفة التى تقدم لوحة جميلة بين المثقفين أولا، ثم بين البشر كافة فى داخل الوطن أو المنطقة أو حتى تعم مع الزمن الطويل كل أنحاء العالم.

واستطرادا لآلية التفاؤل الإيجابية، سنجد أن هذه اللوحة من «الموزاييك» الحضارى ليست ثابتة وجامدة أى استاتيكية، بل هى فى حالة حركة مستمرة لاختلاط الألوان والتفاعل الإيجابى بين الحضارات والخصوصيات الثقافية. ومع الوقت والحوار تتولد أنماط جديدة من الفكر

والثقافة وهى التى أشير إليها بعبارة «التلقيح الثقافى» بين المفاهيم والقيم والعادات وأنماط السلوك، وصولاً إلى التفاعل الثقافى بين الأيديولوجيات والأديان. فتخف حدة الصراعات ويزداد ثراء الحوارات ويدخل العالم طوراً جديداً من التعايش واحترام الحضارات المختلفة والأديان المتباينة وهى عملية ديناميكية قد تأخذ زمناً ليس بالقصير، ولكن المهم هو الوقوف على عتبة التوجه الإيجابى من خلال «قبول الآخر» ، فهو نقطة البداية فى الاستنارة وتغيير مناخ الكراهية والرفض، وهو أمر موجود حالياً فى دول وأقطار مختلفة، ليس فى شكل صراع الحضارات حسب نظرية هانتجتون وإنما داخل كل حضارة بل وداخل كل دين وعرق ومذهب.

## كلمة ختام

لقد آثرت أن يضم دفتى هذا الكتاب الدراسات والتعقيبات التى يقدمها مفكران لكل منهما خصوصيته الثقافية فالأستاذ محمد صادق الحسينى يمثل فكر شيعى مستنير، أما الأخ والصديق السيد/ الصادق المهدي، فإنه صاحب اجتهادات كثيرة نتيجة تجاربه فى الانفتاح على كل ألوان الحضارات التى استوعبها ومزجها بما حصله من التراث الإسلامى باعتباره صاحب العهد لأنصار الله أى لأنصار الحركة المهدية السودانية.

## المراجع

1. Samuel P. Huntington, The Clash of Civilization and The Remaking of World Order, 1996, Simon & Schuster, New York, N. Y.10020
- الترجمة لعربية : صموئيل هنتجتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام اعالمى  
ترجمة طلعت الشايب ، الناشر سطور ، ١٩٩٨
2. Our Creative Diversity, Report of World Commission on Culture & Development. UNSCO. 1996.
- الترجمة العربية : التنوع البشرى الخلاق، تقرير اللجنة العالمية للثقافة والتنمية ، صادر من المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، لقاهرة ١٩٩٦.
- ٣ - د . سعت الدين إبراهيم ، الملل والنحل والأعراق عام ١٩٩٤ - مركز ابن خلدون -- القاهرة.
- ٤ - د . ميلاد حنا ، قبول الآخر ، الطبعة الثانية، مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٩ - الطبعة الثالثة - دار إعلامية - القاهرة.
- ٥ - د . ميلاد حنا ، الأعمدة السبعة للشخصية المصرية، الطبعة الخامسة: دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٨.
5. Francis Fukuyama, The end of History, The National Interest Summer 1989.
7. Edward W. Saïd, Orientalism, Pantheon Books, '978.
8. Max Weber, The Sociology of Religion, Trans. Beacon Press, Boston 1968.
9. Oswald Spenger, World History is the History of Large Cultures, New York, 1926.



## رؤية نقدية لنظرية قبول الآخر

الكاتب الشيعي

محمد صادق الحسيني

المستشار الإعلامي لوزير الثقافة الإيراني



## رؤية نقدية لنظرية قبول الآخر

للكاتب الإسلامى الشيعى

محمد صادق الحسينى

فى تعقيبهِ على ورقهِ د. ميلاد حنا

لقد قرأت بعناية دراسة أختينا الدكتور ميلاد حنا من مصر الشقيقة الكبرى حول موضوعه «المثقف العربى - وقبول الآخر»، فاستفدت منها كثيراً وتعلمت الجديد من عناصر تشكيل المعرفة الإنسانية، وإذا أؤكد فى تعقيبى على أننى أتفق مع جوهر ما ذهب إليه من أن قبول الآخر نظرية تقبلها الفطرة الإنسانية وأشاطره الرأى فى كثير مما ذهب إليه من عرض إنسانى للرأى والرأى الآخر وقراءة للتنوع الطبيعى للخلق والإنشاء فى إطار من الوحدة، إلا أننى أود التشديد أيضاً على أننى اختلف فى بعض ما ذهب إليه من الاستنتاجات أو ما شخصه من مصاديق مع ضرورة التأكيد مجدداً على أن ذلك لا يفسد لاتفاقنا المبدئى فى الرؤية الشاملة لموضوعه «الآخر».

قضية الاختلاف سنة كونية والتنوع أمر محمود

أجمع العرب على أن الاختلاف والمخالفة فى اللغة تعنى أن يتهج كل شخص طريقاً مغايراً للآخر فى حاله أو فى قوله والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان وليس كل مختلفين ضدين. وتتسع مقولة الخلاف

والاختلاف لتشمل أحيانا المنازعة والجدل والجدال والمجادلة وما إلى ذلك، لكن الاختلاف يبقى سنة كونية لا مناص منها وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم في مناسبات عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ (الذاريات/٨).

﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ (مريم/٣٧).

﴿إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (يونس/٩٣).

﴿ولا يزالون مختلفين﴾ (هود/١١٨)

وعلى هذا يمكن القول بأن الخلاف والاختلاف يراد بها مطلق المغايرة فى القول أو الرأى أو الحالة أو الهيئة أو الموقف.

لا شك أن كلاً منّا يعرف أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس بعقول ومدارك متباينة إلى جانب اختلاف الألسنة والألوان والتصورات والأفكار، وكل ذلك عادة ما يقضى إلى تعدد فى الآراء والأحكام والمواقف. وكل ذلك يدل دلالة لا لبس فيها على أن إعمار الكون والأرض وما عليها لم يكن ليتم، كما هو حاصل، لو أن البشر خلقوا سواسية فى كل شىء.

قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ (هود/١١٨ - ١١٩).

وهكذا نجد أن الاختلاف سنة طبيعية وإذا ما التزم الناس بآدابه كان ظاهرة إيجابية، والمشكلة تبدأ عندما يتحول النزاع إلى جدل وشقاق

فتذهب ريح الجماعات والأقوام وتفشل وتشيع الحروب وينتشر الخراب في ديارهم.

### القبول بالآخر شرط لاحترام الذات

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (سورة الحجرات، ١٣/٤٩).

فالإسلام هنا يعترف بالآخر ويقوله وبشروط متساوية في الخلق والنشأة دون أن يحدد هوية الآخر أو نمط تفكيره أو انتماءه ويحدد سلفا بأن معيار التقويم والخطأ أو الصواب والحساب والكتاب والثواب والعقاب كلها أمور تتلخص في التقوى، وبمعنى آخر بنتائج سلوكيات ذلك الإنسان أيا كانت أصوله وجذوره أو انتماءاته وارتباطاته.

وصدق رسول الله محمد الأمين إذ قال: «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» (منهاج الصالحين - عز الدين بليق) كما صدق ابن عمه أمير المؤمنين والخليفة الرابع للمسلمين على بن أبي طالب عليه السلام وهو يشدد على مالك الأشرع عامله على مصر في خطاب العهد الشهير إذ يقول: «ثم اعلم يا مالك.. فإنهم (الناس) صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» (نهج البلاغة) أليس هو من قبيل الإقرار بحقوق متساوية للجميع من ذكر وأنثى ومن جماعات الرأي والرأى الآخر ومن الأقليات العرقية والدينية أمام الحاكم وأمام القانون؟!!

أليس هو ذلك التشريع الأزل الذى يرفع الفروق والتمييز بين الطبقات والجماعات من رعايا الدولة الواحدة، بل من الإنسانية جمعاء أثناء تمتعهم بحرياتهم المشروعة بما يتواءم والحديث المأثور الشريف: «كلكم لآدم وآدم من تراب» وكلنا يعرف كم هو آدم مكرم ومعزز ومقدر عند الله سبحانه وتعالى ومفضل حتى على الملائكة أجمعين.

### ثقافة الحوار ليست ترفاً فكرياً:

لقد آليت على نفسى ألا ابدأ إلا بالرأى القرآنى والإسلامى حول موضوعة القبول بالآخر حتى أرفع بداية بعض الشوائب أو الشبهات التى قد تلحق بالإسلام بسبب بعض سوء الفهم الذى قد ينشأ فيما لو قرىء أو تمت قراءة الدكتور ميلاد حنا خطأ أو بعين واحدة.

أقول ذلك ونحن نعيش على عتبة لألفية الثالثة للميلاد حيث بات الحوار ضرورة عالمية مادام الواحد منا جادا فى سعيه نحو رفعة الإنسان فى البيت والمدرسة والعمل والقرية والمدينة والوطن والعالم أجمع، ولما كان العالم يتجه كله نحو التكامل فى كل المجالات وبات من المستحيل لجماعة أو دولة بمفردها تحمل أعباء التطورات العلمية المذهلة وانفتاح الحدود فى ظل ثورة الإعلام والاتصالات والمعلومات، ورغم وجود دوافع أنانية للسيطرة والهيمنة واستغلال ظاهرة العولمة إلا أن الحاجة للتكامل تجعل ظاهرة الحوار حاجة ضرورية لا بد منها.

من جهة أخرى فإن شبح الحروب المتعددة التى لا تزال تلقى بظلالها على العالم وبعد مضى قرن خلفت وراءها آلاما ومأسى إنسانية لا تحصى

استغل فيه كل شيء، حتى الدين في بعض الحالات أسوأ استغلال، فإن الواجب يستدعى الواحد منا للدفاع عن فكرة الحوار ومقولة التعايش مع الآخر بكل ما يملك من عقلانية وعاطفة ليس فقط إيماناً بمبدأ الحوار كسنة كونية بل ومن أجل رفع الظلم الواقع بحق المبادئ والقيم الإنسانية وفي مقدمتها القيم الدينية الرفيعة والسامية التي تم ويتم تشويهها على أكثر من يد، وفي أكثر من مكان وعلى أكثر من منبر.

بعد هذه المقدمة الضرورية أتقدم ببعض ملاحظاتي على دراسة الدكتور ميلاد حنا أرجو أن تمثل إضافة إلى ما أفادنا به واستمتعتنا بمعرفته وأن يتسع صدره لقبولها في إطار ثقافة الحوار وقبول الآخر.

### ملاحظات على الرأي الآخر للدكتور ميلاد حنا

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وأنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين. قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ (سبأ/ ٢٤، ٢٥).

إن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون وهو على كل شيء قدير، الذى بإمكانه أن يفعل ما يشاء ويحيى ويميت من يشاء ومتى يشاء، أبى على نفسه إلا أن يترك باب احتمالات المستقبل مفتوحاً برغم علمه بالغيب، ولم يرد حسم الموقف لصالح أحد فى باب الحوار والاختيار والانتخاب، والمراد فى مجمل ما ذكرنا على سبيل المثال لا الحصر، وهو ما يتبين أيضاً بصورة أكثر وضوحاً فى حوار المفتوح مع إبليس والذى كان بإمكانه

أن يشطبه من الذكر الحكيم ليقول كن فيكون، المراد أن يمنحنا نبذة من ثقافة الحوار التي يجب أن تسود.

الله الذى «كل يوم هو فى شلن»، الله خالق الأضداد المتعايشة، خالق النور والظلام، خالق الليل والنهار، خالق الخير والشر، خالق الوجود والعدم، هو الأول والآخر لا يريد أن يحسم سلفا فى أى حوار بين البشر لمن ستكون الغلبة، ومن هو صاحب الحق وكلمة الفصل والخطاب عندما ترك الأمر مفتوحا للسجلات بين أبناء البشرية، لتقرر هى بنفسها مصيرها وخياراتها ولتكتشف بنفسها الخيط الأبيض من الخيط الأسود بجهدا ومساعدتها.

نعم هناك ثوات هى جزء، لا يتجزأ من السنن الكونية وقوانين الخلق والنشأة الربانية أو الإلهية. لكن الكثير مما يهمنى والذى يقع على عاتقنا نحن بنى الإنسان يدرج فى خانة المتغيرات، ومن أهم تلك المتغيرات بنظري إدارة شؤوننا الداخلية نحن بى البشر، وفى طبيعتها علاقة كل منا بالآخر، ابتداء من النظرة الفلسفية وصولا إلى الأداء اليومي فى إدارة شؤون البلاد والعماد. نحن الذين نصنع السلام والوئام والتعايش، كما أننا نحن الذين نصنع الأحقاد والتمييز واحروب بكل أشكالها.

نحن الذين نمارس قانون الغاب عى أنفسنا عندما لا نحترم إنسانيتنا التى فضلنا الله بها على الحيوان والنبات والجماد. كما أننا نحن الذين بإمكاننا أن نصنع الحياة النموذجية اثلئى التى يرتفع فيها الإنسان - مطلق الإنسان - إلى درجة خليفة الله فى أرضه، فنحترم حقوق أختينا الإنسان الآخر حتى فى أقسى لحظات العقاب والمجازاة.

أقول هذا فى محاولة لإضافة بعض الأفكار الأولية إلى دراسة أذى الدكتور ميلاد حنا فى محاولة لإثارة الأسئلة ولفت الانتباه إلى القراءة الأخرى لما ورد فى أطروحاته :

١ - إن الطرق للوصول إلى الله برأى بعدد أنفاس الخلائق، وتاليا فإن الطرق للوصول إلى حقيقة الشئ، وكنهه، ومن ضمنه ما ذهب إليه الدكتور ميلاد حنا، لابد أن تكون متعددة.

٢ - إن المشكلة برأى فى غياب نظرية قبول الآخر لا تكمن فى نواقص أو معوقات مقولات الوطنية أو القومية أو الأصولية الدينية أو التخندق الثقافى، أو ما شابه من التخندقات التى هى بنظرى من الأمور الطبيعية لدى الإنسان، وإنما نجدها تظهر عندما نصر على القراءة الأحادية لهذه المقولات. وبالتالى لابد لنا من إشاعة وجود قراءات متعددة ومختلفة لكل مقولة. وإنما يتميز الإنسان وبنو آدم عن سائر الموجودات فى قدرتهم على الإبداع. ومن لا يحترم إبداعه الإنسانى هو الذى لا يقر بإبداع الآخرين ونظرياتهم التكميلية وآرائهم المتنوعة.

٣ - إن التطور البشرى وصل إلى درجة معينة من الكمال تفرض علينا جميعا التزام المواثيق والعهود الخاصة بحرية الفكر والتعبير، واعتبارها موضوعات دستورية وقانونية تحكم سلوكياتنا نحن المثقفين أولا، تماما كما تحكم قوانين كل بلد مواطنى ذلك البلد.

٤ - الإقرار بضرورة قبول بعض الثوابت الكونية التى باتت ملكا للبشرية بالطلق، والتى تعتبر جزءا من الغريزة الإنسانية وميلها للتسليم للفطرة الكونية فيما تبقى المتغيرات حقا سياسيا من حقوق تقرير المصير،

كما قال رسول الله محمد الأمين (ص) «أنتم أدرى بإدارة شؤون دنياكم». كما جاء في مضمون الحديث الشريف.

٥ - وهنا لابد من التأكيد على ضرورة احترام الخصوصيات الفردية والجماعية الثقافية والدينية والحضارية باعتبارها حافزا على شحذ الهمم الإبداعية ورفعة للبحث العلمي وتوقد الفكر البشرى.

٦ - للتخلص من مساوئ «التخندق»، الذى يعترض عليه الدكتور ميلاد حنا، يمكن تعميم ثقافة المستويات المختلفة للتعامل مع الآخر منعا للتمييز ووصولاً إلى فكرة المواطنة العلية أو الكونية إذا ما جاز التعبير. فنقول إن ما يجمع البشر فى المستوى الأول هو الجوهر الإيماني، إذ يتساوى الجميع هنا فى كنه تعلقهم بالكمال المطلق وهو الله تعالى، فيما يختلفون فى مستويات التشريع المختلفة حسب التطور الزماني والمكاني فى المستوى الثانى، ومن ثم يختلفون أكثر فى مستوى العلاقات القائمة بين الحكم والمحكوم فى المستوى الثالث حسب كل بلد أو موقع من مواقع الانتشار البشرى.

وهنا لابد من إشاعة قراءات متصالحة بين الدين والعلم والعقل من جهة، وكذلك بين الحاكم والمحكوم، أو السلطة والرأى العام من جهة أخرى، بما يؤسس لمصالحات تاريخية محلية وعالمية تصلح إطارا لحوار شامل بين الثقافات والحضارات.

٧ - إن المشكلة الخاصة بالنص الدينى - بنظرى - لا تكمن فى النص الدينى نفسه وكونه يعرض على أنه مقدس، فهذا حق من حقوق المتدينين قاطبة، بل هو حق من حقوق العقائديين إلى أى أيديولوجية انتموا.

والمشكلة تبدأ عندما لا يقر المتدينون والعقائديون بوجود فهم أو قراءة مختلفة للنص بين آحاد بنى البشر، والتي تختلف أيضا من زمان لآخر، ومن مكان لآخر وظروف مختلفة من التطور البشرى. وتصبح المشكلة أصعب وأعصى على الفهم والاستيعاب عندما تصبح القراءة البشرية المتواضعة للنص، قراءة مقدسة!

وعند هذه النقطة أود الوقوف قليلا لأورد بعض الملاحظات الخاصة:

( أ ) لدينا قاعدة شرعية معروفة تقول: «ما حكم به الشرع حكم به العقل وما حكم به العقل حكم به الشرع»، لا بأس هنا من تعميمها فى التعامل مع مقولات قراءة النصوص تسهيلا لعملية المصالحات التى ذكرت أعلاه.

(ب) تفيد التجربة الإيرانية التشريعية خلال العشرين سنة الماضية بأن القاعدة العملية القادرة على الجمع بين المحافظة على «طهارة النص وقدسيتها» وفتح باب المناورة والاجتهاد أمام واضع القوانين هى أن تكون القوانين الموضوعية «لا تتعارض مع النص الشرعى»، وليس بالضرورة أن تكون «متطابقة» معه.

٨ - فيما يخص المجتمعات أو الدول الأحادية التوجه ينبغى علينا تشجيع دوائر المثقفين فيها باللجوء إلى السؤال وتعميم نظرية المساءلة والمساجلة الهادئة والحوارية وطرح مقولة «إن مجتمعا لا يسأل هو مجتمع ميت»، وإن توسيع المدارك العقلية لا يتم إلا عبر السؤال.

٩ - إن نموذج لبنان بوجه خاص، وهو بنظرى لوحة جمالية رائعة من لوحات الإبداع الإلهى والتعايش البديع بين الثقافات والديانات

والحضارات أكثر ما يصلح فيه مفهوم المواطنة العالمية الذى يقوم على أساس الجوهر الإيماني الواحد للأديان والمعتقدات، والذى ينبغى لنا أن نرعاه كمتقنين، ليبلور نظاما تشريعيا إنسانيا فريدا ومتميزا يصلح كنموذج قابل للتأمل وربما التعميم فيما لو تم التعامل مع تلك اللوحة البديعة للقدر بدرجة عالية من التخصيص والحصص فى الإدارة، وسن القوانين «الفيدرالية» أو «المناطقية»، أو ما يمكن أن ينجزه اللبنانيون أنفسهم من آليات جديدة فى مجال الأداء الإنسانى المتقدم بما يخدم إعادة صياغة لبنان على يد متقفيه.

١٠ - ليست عندنا، برأى، مشكلة فى العالمين العربى والإسلامى اسمها الأقليات الدينية وخصوصا مع المسيحيين. عندما يسود العقل وتحكم النظرة الثقافية العقلانية، فمسيحيون العرب على ما أظن مسلمون يذهبون إلى الكنيسة، أى أن الرافد الأساسى لما يحملونه من ثقافة هو رافد الحضارة الإسلامية التى صنعت تراث وحضارة المنطقة كلها. المهم كيف نتعامل مع خصوصيات أهل هذه الديانة بما لا يستفز مشاعرهم وأحاسيسهم وقراءاتهم المختلفة والمتنوعة عن الحضارة وعن تراث ودين هذه الأمة وهذه البلاد.

١١ - أما فيما يتعلق بالأقليات اعرقية فالمشكلة تبدو معقدة وتركيبية بعض الشيء، غير أن جوهرها أيضا يظل فى السياق نفسه، وهى برأى ليست مشكلة أوطان وحدود بقدر ما هى مشكلة ثقافية وحضارية وأحيانا سياسية مقبلة. بمعنى أن القمع أو الاضطهاد الذى يتم فى بعض المواقع يتم على أساس احتقار الإنسان لأخيه الإنسان، لكونه واقعا فى الأطراف ولا يمتلك إمكانات، أو لكونه لا يمتلك إمكانات غنية تفيد المركز، أو

العكس أحيانا، لأنه يختزن ثروات يريد نهبها المهيمنون على المركز، مما يجعل الأمر مختلفا بين موقع وآخر حسب تلك الظروف.

فالأكراد مثلا ليسوا أبناء ثقافة الآخر، ومشكلتهم لا تكمن دوما لكونهم ينتمون إلى العرق الكردي. ففي تركيا مثلا كانوا يحاربون لكونهم شكلوا «عالة» على المركز لفترة، ولضعف إمكانات منطقتهم وصعوبتها، وفي العراق، لأنهم يختزنون ثروات هائلة ظل أصحاب المركز يطمعون فيها ويريدون الاستئثار بها وحدهم، وفي إيران ظلوا بعيدا عن المساهمة في صناعة القرار، لأنهم «مثقفون من الدرجة الأولى» من الناحية المدنية والحضارية. وهو ما كان يقلق أرباب المركز ويمنعهم من ممارسة هيمنتهم على القرار القومي والوطني. وهكذا تتحول النظرة إليهم اليوم في البلدان الثلاثة المذكورة نتيجة للتحويلات العالمية أو الإقليمية أو الداخلية، بما يساهم في توازن المعادلة من خلال إشراكهم ولم يعد بالإمكان الاستمرار في إهمالهم.

١٢ - فيما يخص موضوع الآخر في الكيان الصهيوني الإسرائيلي:

( أ ) لا بد من التفريق بين اليهودي والصهيوني دينا وثقافة وانتماء حضاريا.

(ب) لا بد من التفريق بين اليهودي المتدين في المنطقة المحيطة بالكيان الإسرائيلي وبين المثقف الإسرائيلي، أو المواطن المساهم في مساندة ورعاية وحماية الكيان الغاصب للأرض الفلسطينية العربية.

(ج) المشكلة مع «الآخر» اليهودي الإسرائيلي صهيونيا كان أم غير صهيوني هو في كونه مازال يمثل المغتصب. وبالتالي لا يجوز هنا إضعاف

ثقافة الممانعة أمام اليهودى التوسعى العدوانى المهيمن تحت عنوان «قبول الآخر»، واستمرارا، لا بد من ترسيخ هذه الممانعة دفاعا عن الحق الفلسطينى والعربى، لأن حقوقنا فى غير ذلك تضيع إلى الأبد. فالتطبيع يجب أن يظل محرما على المثقفين فى المطلق مادام الكيان الغاصب قائما، حتى لو طبعت كل الدول العربية والإسلامية والعالم أجمع. ولا بد من اكتشاف آلية لإفهام «المثقف» اليهودى فى إسرائيل بأنه يمارس اغتصابا لحقوق الآخر مادام يرضى ببقائه فوق الأرض الفلسطينية مساندا ومرسحا استمرار الكيان الإسرائيلى.

( د ) المشكلة ليست فى عقيدة المتدين اليهودى بأنه ينتمى إلى شعب الله المختار، أو فى المسلم الذى يعتقد بأنه خير أمة أخرجت للناس كما أشار الدكتور ميلاد حنا. فهذا أمر طبيعى وقابل للتحمل فى إطار الخصوصيات الثقافية، والحضارية، والدينية ما لم يتحول إلى نظرية استعمارية، أو إملائية، أو استعلائية، أو توسعية عنصرية. فمن حق أى كان - بل ربما كان هذا الحق جزءا من إغناء الحوار وراثه - أن يتعصب لأهله، وقومه، وعشيرته، ومنهبه، ودينه بشرط ألا يكون على حساب الآخر.

المحصلة: لا بد من فصل نظرية «قبول الآخر» عن السياسة والسياسيين واعتبارها مسألة ثقافية فكرية حضارية، يتم التعامل معها بعيدا عن الشأن السياسى القائم على المصالح المؤقتة والطارئة. ولا بد أيضا من تعميم ثقافة تحمل الآخر، والتعايش معه، والدفاع عن حقه فى التعبير عن نفسه مدام يلتزم بقانون التعايش والحوار. كما ينبغى إفهام الحكومات أيا كانت فى الوطن العربى والإسلامى أو خارجه بأن رسالة

المثقف ليست المدح والثناء والتمجيد والتطويل والتزمير للحاكم ولأرباب السيف وأصحاب السلطة أبدا. إن رسالة المثقف الحقيقي تكمن في توسيع المدارك العقلية والعاطفية للبشرية جمعاء، وإيجاد التوازن والتعادل بين القلب والعقل والتنبيه لاحتياجات البشر الطامع نحو الكمال على كل المستويات. ولا بد للحاكم، أى حاكم، أن يدرك بأنه طارئ ومؤقت مهما طال أمد حكمه، ذلك لأن الدار والوطن والدولة والقطر والبلاد ستظل لأهلها، من أبناء الرأى العام، أصحاب الحق الحقيقيين فى الحكم، وفى مقدمتهم المثقفون، وأن الحاكم إنما يحكم باسمهم لفترة بصورة اعتبارية، ولا أصالة إلا لأهل الدار، وخير من يمثل أهل الدار، ويعبر عن مشاعرهم وإحساسهم واحتياجاتهم، هم المثقفون، أو هكذا ينبغى أن يكونوا، وأن من واجب الحكام أن يرجعوا إلى المثقفين لفهم أوضاع البلاد، وعندهما نقول نعم الحكام، ونعم المثقفين، وأوضاع أهل الدار، لأن المثقفين سيضطرون فى غير ذلك إلى مراجعة الحكام، وعند ذلك فبئس المثقفين وبئس الحكام.

وملاحظة أخيرة للحكام قد تفيدهم فى حيوية حكمهم وإدامته لبعض الوقت لمصلحة الأمة، وهى أن فن أى حكومة وعظمتها ونجاحها لا يكمن فى قدرتها على قمع أو إسكات الرأى الآخر بالقوة والسيف، بل فى قدرتها على معايشة واستيعاب وتحمل الآخر باقتدار.

وأخيرا وليس آخرا فى هذا السياق أيضا، ولكن على المستوى العالمى، فإن المطلوب منا كمثقفين عرب مسلمين ألا ننبهر بالآخر أو نستسلم له أو نذوب فيه، كما لا ينبغى أن نرفضه أو نقاطعه أو ننفيه من ذاكرتنا وتعاملنا، بل هو أمر بين أمرين، أن نعترف ونقر بحقه فى الوجود

والتعبير عن ذاته كما هو لا كما نشتهيهِ، وأن نقتبس منه ما يفيد، على أن نتمسك بجذورنا وأصالتنا، أى نمزج بفعالية وحيوية بين التراث والأصالة، بين الجذور والفروع والأغصان، والتي هى بالمناسبة من نتاج البشرية كلها، وملك لها، بعيدا عن كل أنواع الاختيارية، أو السلافية، أو العنصرية، وذلك فى حوار مفتوح ودائم بين الثقافات والحضارات. ولا بأس فى الخاتمة من هذا التعقيب الذى أطلته عليكم. وبعد المعذرة من جميع المستمعين وشكرهم على صبرهم رغبت أن أنهيه بهذه الأبيات العربية التى تدعو إلى التعرف على الآخر والاستئناس به منذ القدم حيث يقول الشاعر:

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا

وسافر ففى الأسفار خمس فوائد

فتفريج هم واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

أوكما قال الشعر الكبير أبو تمام:

وطول مقام المرء فى الحى مخلق

لديباجة به فاغترب تتجدد

فإنى رأيت الشمس زيدت محبة

لدى الناس أن ليست عليهم بسرمد

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



## نداء المهتدين

لصاحب العهد لأنصار الله

الصادق المهدي

- رئيس وزراء السودان المنتخب عام ١٩٨٦
- زعيم حزب الأمة السوداني
- كتب هذا النداء إلى المهتدين (أى أتباع دعاة المهديّة)  
باعتباره: «صاحب العهد لأنصار الله».



## تقديم نداء المهتدين فى هذا الكتاب:

فى أول أيام عيد الأضحى المبارك والذى توافق مع يوم السبت ٢٧ مارس عام ١٩٩٩ اصطحبت صديقى المهدي توفيق بيومى - الأمين العام لأسرة وادى النيل - وهى جمعيه أهليه تشكلت بمصر عام ١٩٩٦، وتضم نخبة من صفوة رجالات مصر والسودان، لكى يسترجوا دعوة قديمة عايشوها هى «وحدده وادى النيل»، أقول، ذهباً معاً لزيارة كل من مولانا السيد محمد عثمان المرغنى - زعيم طائفة الخاتمة، ورئيس الحزب الاتحادى الديمقراطى بقصره بشارع الخرطوم بحى مصر الجديدة وبعدها توجهنا سوياً لتقديم التهانى بالعيد للسيد/ الصادق المهدي، والذى يعيش فى شقة بسيطة عادية داخل عمارة سكنية جديدة فى أطراف مدينة نصر، فالمؤكد أنه يدرك أن مكانة داخله، ولذا فإن لقاءتنا حول قضايا ثقافية تمتد لوقت طويل لأنها - فى معظمها - حول الفكر العربى والعالمى وصولاً إلى الثقافة الدينية على أنواعها وعندما تقاربنا - بعد أن اتخذ من القاهرة مقراً له بعد هروبه من بطش حكومة «الإنقاذ» فى حينها منذ عدة سنوات، ولكن السياسة تتغير مع الزمن فتتغير العلاقات الإنسانية بالتالى وكنت أمزج معه، بأنه رجل فكر يتجاوز أى منصب سياسى، على الرغم من أنه شغل بالفعل أعلى منصب منتخب فى السودان وهو رئيس وزارة السودان بعد أن خاض عام ١٩٨٦ - بنجاح مؤكداً - معركة الانتخابات باعتبارها زعيم ورئيس حزب الأمة السودانى.

وخلال الحوار، تطرق الحديث عن كتاب صموئيل هانتجتون والذى يتنبأ فيه بأن الحقبة الحالية والقادمة محكومة بمجتمع الصدام بين الحضارات وفى مقدمتها احتدام الصراع بين الغرب والإسلام.

وكان أن قدمت له فى هذا اللقاء مؤلفى «قبول الآخر» وشرحت كيف أننا فى «الشرق» لنا تراثنا فى تفهم «الآخر» والمعاشة معه، وتجاوزنا أيضا حول فكرة كتابى الأقدم (١٩٨٩) «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» وكيف أن التركيبة الإنسانية الثقافية للمصرى متأثرة بتاريخ مصر ورقائق حضاراته الأربعة وهى: الفرعونية - اليونانية الرومانية - المسيحية القبطية - الإسلام (وهذه الرقيقة الخالية بها عدة رقائق داخلية)، كما هى (أى الهوية المصرية) متأثرة بالجغرافيا أى بالموقع، ومن ثم فإن المصرى عربى ثقافة ووجودا لأن مصر قلب العالم العربى، ثم هى مطلة على البحر المتوسط وفى نهاية لمطاف فإن العامود السابع هو انتماء مصر إلى أفريقيا.

ثم تطرق الحديث إلى الإسلام ومدى ملاءمة بعض مفاهيمه التراثية إلى العصر، وأثر كل ذلك على الصراع الدموى الذى يدور فى السودان، فكان أن قام الصادق المهدي، وأحضر لى هذه الدراسة التى كتبها باعتباره «صاحب العهد لأنصار الله» وقد أعطاه عنوان «نداء المهتمين» وقد فهمت منه أن له دراسة أخرى بعنوان «نداء المؤمنين» وتفتح حوارا مع المسيحية فلم أعجب أن كان بيانه فى جيبوتى مع الفريق عمر البشير فى ١٩٩٩/١١/٢٥ بعنوان «نداء الوطن» فهو يهوى أن تكون كتاباته جملة نداءات فكرية.

وعندما عكفت على قراءة هذا النداء، وجدت فيها ما كنت أبغيه، فلا يستطيع - إلا مكابر - أن يزايد على الصادق المهدي فى أنه مسلم متعمق فى دراسة الفقه والسنة والتراث، وفوق ذلك لديه حنكة فى دنيا

السياسة بما فيها من كفر وهرب، اكسبه ربط التراث بالفكر العالى عبر النصف الثانى من القرن العشرين فعاصر استقلال السودان عام ١٩٥٦ ثم انتخابات وانتقابات وحروب أهلية بين الشمال والجنوب وكان أنواع الصراعات بسبب اختلاف العرق والدين والجهة (أى الموقع الجغرافى) ومن ثم جاء ندائه إلى أتباعه المهتمين تحمل رؤية جديدة تناسب العصر.

وربما كان الجزء الذى يهدفى هو ذاك الخاص بـ «الحقائق الجديدة» أى تلك المفاهيم «المعاصرة» التى نشأت حتى صارت جزءاً من ثقافة القرن العشرين وربطها بالتراث ومن ثم فهو مجدد مجتهد (له أجران) وهذه الحقائق السبعة هى: الوطنية - القومية - العولة - الوحدة الإسلامية - التعددية الاجتهادية - الحركة فى الشريعة التحول السياسى، وسيتعرف عليها القارئ من خلال الورقة ذاتها.

وهكذا أعجبتنى دراسة ونهج الصادق المهدي، وما أن حانت الفرحة لأن أنشر كتابى عن «المثقف والآخر» حتى وجدتها تضمنه مفاهيم «قبول الآخر» فكان «نداء المهتمين» إضافة فكرية طيبة. زادت الكتاب ثراءً وانفتاحاً.

ولأن السودان يمر حالياً بمرحلة تاريخية مفصلية، ولأن الصادق المهدي أصبح أحد رموز التغيير لأنه حامل لفكر «قبول الآخر» المدعم بأسانيد ومرجعيات ذات جذور تراثية، لذلك صار منشغلاً بالحاضر المتحرك لكى يصيغ «سودانا جديداً»، يضع فيه الأفكار والنداءات موضع التنفيذ، ومن ثم لم أستطع أن أحصل على الموافقة المباشرة لنشر هذا

النداء ضمن هذا الكتاب فهو كثير الترحال من جيبوتى إلى كامبالا إلى طرابلس إلى جينيف ليجرى حوارات فكرية فى الكواليس تصاغ فى توجهات سياسية لها مردودها مع الواقع فيكون الانصهار الوطنى وهو ما يحتاج له السودان بشدة اتصلت بأحد معاونيه المقربين منه وهو الصديق د. إبراهيم الأمين - الطبيب والمناضل والمفكر والوزير السابق فى حكومة الصادق المهدي عام ١٩٨٦ فكن أن سعد ورحب بأن تكون ورقة «نداء المهتمين» متاحة للقارئ المصرى من خلال مجلة «اقرأ» والتي أصبحت من أكثر الدوريات انتشارا لتقديم كل ما هو جديد وكل ما يثير الحوار ويثريه.

**ميلاد حنا**

١٩٩٩ / ١٣ / ١٤

# نداء المهتدين

لصاحب العهد لأنصار الله

الصادق المهدي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه. قال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾<sup>(١)</sup>.

منذ أن أشرق نور الرسالة الإسلامية سطرت سيرة الإسلام صلاحاً ونجاحاً وفلاحاً لم يعهد تاريخ البشرية لها مثيلاً. لقد أسس الإسلام ديناً عالمياً مازال يتمدد في كل أجزاء العالم، وأسس المسلمون حضارة استصابت عطاء حضارات الإنسان السابقة وأتت بنسيج وسطى فريد. واستطاعوا أن يؤسسوا كيانات سياسية هيمنت على الربع المعمور من العالم لمدة ألف عام.

ولكن منذ ثلاثة قرون استطاعت الحضارة الغربية أن تستصحب عطاء الحضارات السابقة لا سيما الحضارة الإسلامية. وأن تبعد الحضارة الحديثة التي تفوقت على كافة الحضارات الأخرى وهيمنت عليها. إن الذي أهل الحضارة الغربية الحديثة لذلك التفوق أمران:

---

(١) سورة النحل: [١٢٥].

الأول : هو أن الحضارة الحاملة للمشعل قبلها: أى الحضارة الإسلامية، قيدها الجمود الفكرى والثقافى، وأضعفها التفرق المذهبى، وأقعدها التخلف الإقتصادى والاجتماعى، وحبسها الاستبداد السياسى فتآكلت وتراجعت حتى صارت كالمستعدة للغزو الأجنبى والاستسلام له.

والثانى : القدرات الذاتية للحضارة الغربية بلغت شأوا عظيما نتيجة لثلاثة عوامل:

(١) الحرية الفكرية وحرية البحث العلمى والتكنولوجى.

(٢) تأسيس نظام سياسى يقيم الحكم على رضا المحكومين ويعرض الحكام لمحاسبتهم عبر مؤسسات مقننة ويحقق أمرين هامين هما:

(أ) التداول السلمى للسلطة عبر مؤسسات دستورية.

(ب) تقنين الوظيفة العسكرية وإخضاعها للشرعية الدستورية.

(٣) تأسيس نظام إقتصادى حقق جدوى استثمارية وإنتاجية عالية عن طريق الاستغلال الفعال لتطور العلم والتكنولوجيا وآلية السوق الحر.

هذه العوامل مكنت الحضارة الغربية الحديثة أن تقيم نظما سياسية مستقرة ومتطورة، وإن تقيم نظما إقتصادية منتجة ومحققة لأعلى درجة من التبادل التجارى الداخلى والخارجى وأن تبنى قوات مسلحة محصورة فى أداء وظيفتها العسكرية عالية الكفاءة القتالية والتنظيمية. واستطاعت الحضارة الغربية الحديثة أن تكتسب قوة سياسية وإقتصادية وعسكرية مكنتها من فرض هيمنتها على سائر أنحاء العالم.

أثناء القرون الثلاثة الماضية وضعت الحضارة الغربية الحديثة المهيمنة الحضارات والبلدان الأخرى أمام واحد من ثلاثة خيارات:

(أ) رفض الحضارة الغربية ومقاومتها وبناء الحياة على أساس مستقل عنها.

(ب) الامتثال للحضارة الغربية باعتبارها تمثل مستقبل الإنسان المحتوم وبناء الحياة على أساس التشبه بها.

(ج) اتخاذ موقف وسط يحافظ على الهوية الثقافية والحضارية ويقبل التحديث ويفرق بين المقومات الذاتية للحضارة الغربية وبين الحداثة.

لقد أخذ بالخيار الأول دعوات وحركات وثورات عديدة فى العالم الإسلامى هدفها بناء الحاضر على بعث الماضى واستلهاهم إنجازاته ومقاومة ورفض الحضارة الغربية بحذافيرها. هذه المواقف حققت فى كثير من البلدان بطولات ونجاحا مؤقتا ولكنها فى النهاية تهاوت أمام القوة الاقتصادية والآلة العسكرية الغربية.

كانت الدعوة المهدية فى السودان أنجح مواقف التصدى للهيمنة الغربية فى القرن التاسع عشر الميلادى. وكان تصديها وبطولاتها مضرب الأمثال فى الشجاعة والإقدام، ولكن الكيان السياسى الذى أقامته الدعوة المهدية بعد صموده لأكثر من عقد من الزمان تصدع أمام الآلة العسكرية الحديثة.

أما الخيار النقيض، الثانى، فقد أخذ به آخرون لاسيما فى آسيا الوسطى وفى الجزائر الفرنسية وفى تركيا الكمالية. هذه المحاولات مع ما توافر لها من أسباب التمكين تراجعت أمام دعوات التأسيس الدينى والحضارى والثقافى.

واقع الحال الآن هو أن البلدان التى تمت فيها محاولات البعث الماضوى المحض تشهد انفتاحا عسريًا. والبلدان التى تمت فيها محاولات انخراط فى الحضارة الغربية تشهد بعثًا تأصيليا. هذا معناه أن النهج الأفضل والأجدى هو التزام التأصيل دون انكفاء والتحديث دون تبعية.

## إن علاقة الحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية معقدة لأسباب أهمها:

١ - الحضارة الإسلامية تكمن فيها تيارات مشدودة إلى نجاحها القديم لدرجة تظن أن استنساخ ما حدث تاريخيا ممكن. هؤلاء يسقطون نجاح الماضى على الحاضر فيشلون حركته. هؤلاء يعتقدون أن التعامل المشروع مع الأديان الأخرى والحضارات الأخرى هو ذلك التعامل الذى يقاس على سابقه فى الماضى ولا مشروعية لأية معاملات تقوم على أنماط مختلفة.

٢ - الحضارة الغربية الحديثة تعاملت مع الحضارة الإسلامية بدرجة عالية من الذعر لأنها الحضارة الوحيدة التى كادت تمتصها بسبب تفوقها الفكرى والتكنولوجى والثقافى عليها. كما كانت الحضارة الوحيدة التى هددت الحضارة الغربية فى وجودها أكثر من مرة. لذلك صار التخوف من الإسلام والمسلمين شيئا عاديا فى كثير من النفوس الغربية.

٣ - الحضارة الغربية الحديثة تعاملت مع الحضارات الأخرى بدرجة كبيرة من التعالى وافتراس الدونية. وكان تعاملها مع المسلمين ظالما مهينا

غدارا لم يراعوا فيهم إلاها ولا ذمة. لذلك صار بغض الغرب وأهله قريبا من نفوس كثير من المسلمين.

٤ - إن إصرار الغرب على التعامل مع الحضارات الأخرى بالتعالى ومع المسلمين بالظلم يغذى مشاعر الكراهية والتنافر فى الطرفين ويوقد تيارات التشدد والمواجهة فيهما مما يسوق العالم إلى فترة صدام ظلامية. آتية حتما ما لم تهزم الحضارة الغربية نزعات التعالى والظلم فيها، وتنتهج - وهى فى موقف القوة والهيمنة الحالية - نهجا ذا خمس شعب:

● الاعتراف بأن الحضارة الغربية الحديثة حضارة مركبة ساهمت فى تكوينها كل حضارات الإنسان السابقة لاسيما الحضارة الإسلامية.

● الاعتراف بأن الحضارات الإنسانية والثقافات الأخرى لها دورها فى بناء حاضر ومستقبل الإنسانية، ولا يجوز التعامل معها ككائنات منقرضة أو فى طريقها للانقراض الوشيك.

● التسليم بأن منجزات الحضارة الغربية الحديثة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية الصالحة لاستصحاب البشر لها فى كافة البلدان، سيتم استصحابها برؤية ذاتية بالإكراه، والرؤية الذاتية هذه تشتمل على أقلمة ثقافية واجتماعية تحدها الشعوب المعنية باختيارها.

● إن الغرب قد كان سببا أساسيا فى تكوين عدد من بؤر النزاع الساخنة، ومهما كانت مسئولية الأطراف المحلية عن استمرار تلك البؤر

الملتزمة فإن اعتراف الغرب بدوره فى تكوينها واستعداده للقيام بدور تكفيرى فى علاجها أمر هام وعتبة نحو علاقات دولية سليمة وسوية. اهم تلك اليؤر هي :

( أ ) قضية الحق الفلسطينى الغصوب وقيام دولة إسرائيل على حسابه.

(ب) قضية كشمير وأهلها كشعب متطلع لتقرير مصيره.

(ج) مسألة جنوب السودان وما كان من أمر سياسة الاستعمار لتطوير الجنوب على أساس مناقض لما فى الشمال ثم عكس تلك السياسة فى فترة زمانية لم تكف لتكريس الاتجاه الجديد.

● إن للغرب الاستعمارى مسئولية فى تخلف البلدان التى وقعت تحت نير الاستعمار. صحيح أن للقيادات الوطنية التى حكمت هذه البلدان بعد استقلالها مسئولية فى الإبقاء على التخلف. لكن يتبقى ن نعترف أن النظام العالمى السياسى ولاستراتيجى الذى قام بعد الحرب العالمية الثانية كان نظاما بالنسبة لنول الجنوب - والعالم الإسلامى جزء منه - غير متكافئ.

والآن إن تحرير العلاقات الاقتصادية والتجارية بين عالم الجنوب أى جنوب الكرة الأرضية المتخلف، وعالم الشمال المتقدم، وحصول عالم الشمال على أهم أسباب الرقى والتقدم سوف يودى إلى اتساع فجوة التنمية بين نصفى الكرة الأرضية بل إن هذا الوضع غير المتكافئ - بالإضافة إلى تقصير كثير من قيادات عالم الجنوب - سوف يودى إلى

تهميش الجزء الأكبر من عالم الجنوب. هذا التهميش سوف يؤدي حتما إلى التظلم، والغبن، والاحتجاج.

ينبغي أن يهتم عالم الشمال بقيادة فعلية للأسرة الدولية اهتماما خاصا بالتنمية في عالم الجنوب لأسباب كثيرة أهمها:

(أ) أسباب سياسية. فالاحتجاج والتظلم لا يمكن حصره في عالم الجنوب بل سوف يتعداه إلى الشمال عبر عدد من وسائل الاحتجاج نسميها أسلحة الدمار الشامل، ونذكر منها تكوين مصادر مستمرة لحركات الإرهاب الذي يمكن أن يسمى نفسه أسماء عديدة ولكنه في النهاية احتجاج سياسي يتخذ العنف أسلوبا.

(ب) القنبلة السكانية التي يمكن أن تنفجر في عالم الجنوب وتكون لها آثار سلبية في كافة أنحاء العالم.

(ج) القنبلة الأيكولوجية. إن تصرف أى جماعة أو دولة في العالم بطريقة غير مسئولة نحو البيئة والطبيعة سيكون له آثاره السلبية العامة.

(د) قنبلة المخدرات. ضبط التعامل مع المخدرات إنتاجا وتوزيعا أمر مهم ولا يمكن تحقيقه إلا على أساس دولى حازم.

(هـ) القنبلة الصحية. إن العالم يشكل بيئة صحية واحدة، وإن علاج الأوبئة والوقاية من المخاطر الصحية يتطلبان مشروعاً صحياً عالمياً.

(و) الهجرة غير القانونية. هذه الظاهرة سوف تستمر وتتصاعد ما لم تعالج أسبابها الأساسية. وعالم الشمال لا يستطيع أن يتعامل معها

كظاهرة أمنية فحسب وإن حاول ذلك فلا يحقق نجاحا جزئيا إلا على حساب إلغاء الحريات العامة في مجتمعاته !! .

.. ذلك النهج الغربي المطلوب يشكل لنا بيئة خارجية صالحة. ولكن الأهم منها أن نقف نحن المسلمين وقفة صدق مع الذات نحاسب أنفسنا ونحسب خطانا لأن تجديد دورنا افعال في الحياة يبدأ بصحة ذاتية. يجب أن نعترف أننا استقبلنا وحيا هو الأوثق لأن الكتب الأخرى لم تدون على نحو ما حدث للقرآن الكريم. كذلك كان نبينا هو الأكثر تاريخية بالقياس للرسل الآخرين الذين محت الأيام أكثر تفاصيل سيرتهم للسنة اللهم إلا ما دون منها في القرآن الكريم.

هذه الحقائق الناصعة حبسنا بها أنفسنا في الماضي دون مبرر ديني صحيح. الملزم لنا بموجب عقيدتنا هو القطعى ورودا والقطعى دلالة من النصوص الإسلامية. لكننا ألزمتنا أنفسنا بتفسير للقرآن، وبدونات للسنة، وباستنباطات فى الفقه، وبروايات للسيرة جعلناها ملزمة لحاضرنا ومستقبلنا فألبسنا الفكر والثقافة والحياة قميص حديد ماضويا. إن فى شريعة الإسلام ما هو ثابت ومتحرك. وإن من مقاصدها التوفيق بين حقائق الوحي والعقل. ولكن إلزام أنفسنا بتلك التفسير والاستنباطات والروايات يلحق اجتهادات عقول الأقدمين بحقائق الوحي، ويلحق المتحرك من أحكام الشريعة بالثابت وهذا معناه إلغاء دور العقل وإلغاء هامش حركة الخلف. إن فى هذا تضيقا لواسع وتبيدا لمقاصد الشريعة

الإسلام رسالة خاتمة خاطبت الإنسانية فى مرحلة نضجها، وكلفتها بالاجتهاد فى كل ما ليس قطعى الورد وقطعى الدلالة، إن على أمة

الرسالة الإسلامية واجبا نجاحها في أدائه يؤهلها لقوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر.. ﴾ الآية (١١٠ - آل عمران). وإخفاقها في أدائه هو السبب المباشر لما تعاني منه اليوم من انحطاط إنها معاناة سوف تستمر ما بقيت أسبابها، ولا يخرجنا منها إلا جهدنا واجتهادنا ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ الآية (١٣ - الرعد) .

إننا ونحن نستقبل القرن الميلادي الجديد نشاهد بوضوح:

١ - الإسلام الديانة، الذي فصلته حقائق الوحي وأحكامه ثابتة لا ينفك يعمق في النفوس وفي التربية. ولا ينفك يتسع انتشارا بصورة جعلته حتى يومنا هذا الدين الأوسع انتشارا في كل قارات العالم.

٢ - الإسلام الحضارة - أي ديوان الحوار بين المسلمين والحضارات الأخرى والمجتمع والتاريخ - كون حضارة عالية متفردة يزيد تقديرها يوما بعد يوم.

٣ - لكن مع أن الإسلام كأساس للنظام الاجتماعي مشتمل على أرفع المبادئ السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأكثرها تفوقا على أفضل ما أفضى إليه التقدم الإنساني في المجال الاجتماعي.. مع ذلك كله، فإن المسلمين اليوم يعيشون واقعا اجتماعيا سيئا. الشعوب الإسلامية هي الأكثر ضحية للجمود الفكري والثقافي في العالم، وبالتالي هي الأكثر تخلفا اقتصاديا وسوء توزيع للثروة والدخل. وهي الأكثر تعرضا لهيمنة الأخيبيية. والسبب واضح: دور العقل في التفسير والاستنباط وتحليل

الروايات، ودوره في التعامل مع الحوائب المتحركة من الشريعة دور هام في مجال المعاملات. أى في المجال الاجتماعي، إنه دور يقع التكليف به على الأمة وتعطيله يدل على تقصير الأمة في القيام بواجبها ويؤدى إلى ما أدى إليه من واقع اجتماعى كربه.

### « يا أهل القبلة تعالوا إلى كلمة سواء بيننا »

أولا : إننا كتابنا واحد معلوم ومحفوظ النص، ورسولنا واحد معلوم السيرة والهوية. هذه من نعم الله علينا. كتاب الله وسنة رسول الله بين أيدينا. علينا أن نؤمن تماما بأن ما نلتزم به هو القطعى ورودا والقطعى دلالة من الكتاب والسنة. أما الظنى ورودا والظنى دلالة وما ليس فيه نص أصلا فأمور اجتهادية غير ملزمة لنا

ثانيا : التعامل مع الآخر المذهبى الإسلامى يجب أن يقوم على الإيمان المشترك بالقطعيات والاعتراف المتبادل بالاجتهادات على أساس أن التقليد فى الاجتهادات غير ملزم وأن القاعدة السنوية من اجتهاد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فإخطأ فله أجر واحد.

ثالثا : هنالك عوامل مستجدة اختلف المسلمون حول كيفية التعامل معها:

- أهل السنة قالوا بالتعامل مع المستجدات على أساس القياس والإجماع.
- الشيعة قالوا بمعرفة خاصة للأئمة ولمراجع التقليد فى غيابهم. هؤلاء يفتون فى أمر المستجدات.

● الصوفية قالوا بأن الصالحين ملهمون مكشوف لهم الحجاب مما يتيح لهم معرفة خاصة للتعامل مع كل الأمور وعلى الآخرين اتباعهم. لقد جادل المسلمون كثيرا حول تلك الأساليب، فمن قائل أن القياس غير صحيح، لأنه لا تكون حالة مثل حالة أبدا، وقائل أن الإجماع فى أمر من الأمور غير القطعية لم يقع أبدا، وقائل أن الأئمة المعنيين لم يوجدوا أصلا، وأن القول بالكشف مختلف عليه، وغيرها من مقالات الإسلاميين، إن عصرنا الحالى يمتاز بإلغاء المكان عن طريق المواصلات، وإلغاء الزمان عن طرق الاتصالات مما يتيح لنا وسائل أفضل فى التعامل مع هذه القضايا. الأسلوب الأمثل هو تحديد هيئة أو هيئات فنية ذات معرفة وتخصص فى كل المجالات ذات دور استشارى. واتخاذ هيئة أو هيئات تشريعية ذات تفويض شعبى للتداول بشأن المستجدات واتخاذ قرار بشأنها.

رابعا : ينبغى أن نحدد أساسا واضحا للتعامل مع الآخر الملى فى أوطاننا. إنهم وجدوا معنا فى هذه الأوطان واستمروا فيها باختيارهم، وإن هذا الموقف أكسبهم موقف أهل العهد - عهد المواطنة - وإن نحن سحبنا منهم هذا الحق فإنهم فى نطاق القانون الدولى المعاصر سوف يسعون إلى حق تقرير المصير. إن عهد المواطنة يقتضى الاتفاق على حد أدنى من الحقوق لكل المجموعات الوطنية، وإلا دفعناهم دفعا نحو العمل لتقرير المصير ومن ثم التمزق الحتمى. علينا إذن أن نقر عهد المواطنة وحق المواطنة كأساس للكيان الوطنى، فالوطن لكل سكانه بموجب عهد

المواطنة، ولكن هذا لا يتعارض مع الحقوق الدينية والثقافية للمجموعات الوطنية المختلفة ما دامت لا تطالب بوضع ينتقص من حقوق المجموعات الأخرى.

إن الشريعة الإسلامية واجبة التطبيق للمسلم، وعلينا أن نضع ميثاقا واضحا يوفق بين حق المسلمين فى تطبيق الشريعة الإسلامية، وحقوق المواطنة للآخرين. وعلينا أن نعلن بوضوح التزامنا الأساسى بأن التعامل بيننا وبين أهل الملل الأخرى يقوم على مبادئ أساسيين هما: ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ الآية (٢٥٦ - البقرة) ﴿ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ الآية (١٢٥ - النحل).

خامسا : النظام الدولى الحالى يقوم على أساس العهد الذى يقوم عليه نظام الأمم المتحدة. إنه نظام بالنسبة للمسلمين يعتمد على مرجعية إسلامية أساسية هى: ﴿ وأقوا بالعهد إن العهد كان مسئولا... ﴾ الآية (٣٤ - الإسراء). ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم .. ﴾ الآية (٨ - الممتحنة).

إن النظام الدولى المعاصر لم ينشأ من فراغ. لقد كانت بداياته مستمدة من مفاهيم المعاهدة والائتمان، ومعاملة الأسرى، والعلاقات بين الكيانات السياسية الدولية التى خطها المسلمون استنباطا من مبادئ وأحكام الإسلام، وتسربت إلى أوروبا عبر الأندلس وصقلية وجنوب

إيطاليا، وقديما قال بلاسكو ايباريز في كتابه «تحت ظلال الكاتدرائية»: «إن إحياء أسبانيا لم يأت من الشمال بل من وسط مع العرب الفاتحين».

نعم .. إن النظام الدولى الحالى أقيم فى غياب كثير من البلدان الإسلامية.

نعم .. إن فيه نقصا يفترق إلى تصحيح وتصويب لتكتمل عدالته. وهذا ما ينبغى أن نسعى إليه ونحققه.

سادسا : هنالك منجزات حققها الغرب لا تتعارض مع أصول مبادئنا الإسلامية، ولكن الفضل فى تحقيقها وتكوين مؤسسات لاستدامتها يرجع للحضارة الغربية فى المقام الأول. تلك المنجزات ينبغى أن نستصحبها دون أدنى حرج، وأن نحدد مرابطها فى مقاصد الشريعة الإسلامية:

( أ ) الحرية الفكرية وحرية البحث العلمى والتكنولوجى.

(ب) النظام السياسى الذى يقوم على رضا المحكومين ومساءلة الحكام وتحقق التداول السلمى للسلطة والخضوع العسكرى للشريعة الدستورية.

(ج) النظام الاقتصادى الذى يقوم على آلية السوق الحر لاسيما فى مجال الاستثمار والإنتاج والتبادل التجارى.

( د ) الالتزام بحقوق الإنسان على أساس أن الله كرمه وأوجب له حقوقا مقدسة. إن حقوق الإنسان التى جاء بها الإسلام تتكامل ولا تتناقض مع حقوق الإنسان العالمية على نحو ما أوضحنا بالتفصيل.

وحقوق الإنسان في الإسلام تمتاز على غيرها لأنها تستمد من جذور روحية وخلقية وتستوجب جزاءاً أخروبياً.

(هـ) لقد دار في مسألة المرأة جدل كبير. المرأة هي الوالدة والزوجة والأخت والبنات للرجل، والنساء في مفهوم الإسلام شقائق الرجال. والنصوص الإسلامية واضحة في مساواتها إنسانياً وإيمانياً.

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. ﴾ الآية (١٣ - الحجرات).

﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض.. ﴾ الآية (١٩٥ - آل عمران).

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.. ﴾ الآية (٧١ - التوبة).

هذه المساواة بين الرجل والمرأة حددها أمران: الأول: فطري وهو أن للرجل والمرأة في أمر التوالد والأسرة وظيفتين مختلفتين متكاملتين. هنالك أحكام تتعلق بهذا الاختلاف لا مفر منها بل هي واجب تقتضيه الفطرة. المهم ألا يكون هذا مدخلاً للتفاضل بل للتكامل. الأمر الثاني: أحكام واستنباطات لحقت بالمرأة بسبب ظروف فكرية وثقافية واجتماعية مقدره في زمانها ولكنها الآن تجاوزتها الظروف.

إن حقوق المرأة فى الإسلام كانت طفرة تحريرية فى ظروفها. أما الآن فإن حقوق المرأة العالمية قد بلغت مرحلة متطورة. التحدى الذى يواجهنا هو هل تستطيع المرأة أن تكون مسلمة وحديثة فى آن؟  
الجواب: نعم.

سابعاً: الجهاد هو ذروة سنام الإسلام. والجهاد هو رهبانية أمة محمد ﷺ والجهاد ماض إلى قيام الساعة. إن مادة جهد هى أساس الصلاح والفلاح والنجاح فى كل مجالات الحياة. ولا يقلح الإنسان فى أية حالة إذا لم يبذل الجهد: لا بد لنيل الشهد من إبر النحل. الجهاد فى هداية الإسلام هو بذل الجهد كله للالتزام بأمر الله. إنه يبدأ دائماً بالزام النفس على الفضيلة، وهذا هو الجهاد الأكبر لأن فاقد الشئ لا يعطيه.

ثم يتجاوز الإنسان نفسه إلى أسرته وإلى مجتمعه وعليه بذل الجهد كله وبكل الوسائل للالتزام بهدى الله، هذا الالتزام يصير التزاماً قتالياً فى حالة فتنة الناس عن دينهم أى إكراههم على الخروج من دينهم. وفى حالة الدفاع عن النفس. أى دفاعاً عن العقيدة ودفاعاً عن الحياة ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ الآية (٣٩ - الحج).

إن اتحاد الفهم بين كافة أهل القبلة حول هذه النقاط السبع واجب إسلامى.

## الحقائق الجديدة

هنالك سبع حقائق جديدة فى عالم لم يسبق للفكر الإسلامى أن حدد موقفا بشأنها. إنها حقائق ينبغى أن تحدد نحوها مواقف واضحة هى:

أولا: الوطنية:

الوطنية والدولة القومية المترتبة عليها شكل سياسى جديد اتخذته الكيانات الأوروبية منذ صلح وستيفاليا فى ١٦٤٨ م وصارت الوحدة المعتمدة فى العلاقات الدولية.

لقد عرف الإسلام رابطة الأسرة. ورابطة القبيلة. ورابطة الإقليم أو الجهة.. لكن الوطنية تقوم على أساس ثقافة معينة، وتاريخ، وتجارب تكون شعبا مرتبطين بأرض معينة. المواطنة هى الرابطة التى تجمع بين شرائح هذا الوطن. إنه تطوير لرابطة الأسرة والعشيرة، يربط بين المجموعات الوطنية والدولة، وله فاعلية فى تنظيم مصالح المواطنين من حيث توافر أسباب المعيشة والأمن.

إن الرابطة الوطنية يمكن أن تكون مفيدة فى سبيل تحقيق التنمية وكفالة سبل المعيشة والأمن، ومع أنها تقوم على مفهوم متشدد على السيادة الوطنية، فإن التعامل مع السيادة بصورة مرنة لتقبل الانتماء إلى كيانات أوسع ممكن ما دام ذلك يتم برضا المواطنين. لذلك يجب ألا ننظر إلى الانتماء الوطنى بريبة وألا نضعه فى مقابل الولاء للأمة الأكبر، بل نعتبر الانتماء الوطنى صالحا فى حدوده المختارة قابلا للتوسع الاختيارى.

## ثانيا : القومية :

إن فى الأمة الإسلامية عدة قوميات. والإسلام لم ينف الانتماء القومى بل استصحبه بصورة جعلت العرب يحققون بالإسلام أمجد أيامهم، كذلك حققت القوميات الأخرى الطورانية، والفارسية، والهندية بالإسلام أمجد أيامها وأفضل عطائها.

إن علينا أن نعترف بالانتماء القومى لا سيما على أساس ثقافى ولغوى وسلالى لا يتعارض مع الانتماء الأوسع للأمة إلا إذا كانت فيه عصبية. العصبية هى الشعور الذى يميّته الإسلام لا القومية.

## الثا : العولمة :

هناك عوامل جديدة فى عالم اليوم هى :

- ١ - تكنولوجيا المواصلات نفت المسافات وتكنولوجيا الاتصالات كمشت الزمان فصارت أطراف العالم متداخلة وصار كوكب الأرض أقرب إلى حاضرة واحدة .
- ٢ - المصلحة البيئية (الأيكولوجية) لكوكب الأرض واحدة مما يوجب التعامل معها كوحدة طبيعية واحدة .
- ٣ - هناك فضاءات تملكها الإنسانية ملكا مشتركا : الفضاء والبحار والمحيطات والأجزاء غير المأهولة من الكوكب .
- ٤ - أثناء التسعينيات انعقدت مؤتمرات قمة قاربت بين وجهات النظر حول كثير من القضايا الهامة : السكان - المرأة - النواحي الاجتماعية .. وهلم جرا .

٥ - هناك العديد من الأديان العالمية كالمسيحية والإسلام والبوذية والأديان التي كونت حضارات كالمسيحية والإسلام والهندوسية، والحضارات المتعددة الأديان كالصينية واليابانية والثقافات الإنسانية الكثيرة. لقد انطلقت حوارات جادة بين أطراف هذه الانتماءات وهي حوارات نصب في خانة تبين القيم المشتركة بينها والتنوع والتعدد فيها. إن هذه الحوارات تتجه لتكوين تصور موحد للتعايش والتسامح الدينى والحوار بين الحضارات تجنباً للصدام والخصام.

٦ - التطور الاقتصادى والتجارى وحركة انتقال الأيدى العاملة والاستثمارات والحركة المالية العالمية تتجه لخلق سوق عالمى واحد.

هذه العوامل لسته هى التى تقف وراء العولمة كظاهرة مرتبطة بتطور الوعى الإنسانى والتاريخ الإنسانى. لكن العولمة تتم فى عالم فيه توزيع غير عادل للسلطة والثروة والقوة العسكرية. لذلك فإن القوة المهيمنة عالمياً إنما تلون العولمة بلونها وتحاول إخضاعها لمصالحها الذاتية.

إن علينا أن نقبل العولمة كتطور حتمى لتاريخ الإنسان، وأن نتخذ ما نستطيع من إجراءات على كافة الأصعدة لكيلا تتحول العولمة إلى امتثال للمهيمنة الدولية. هذه معادلة صعبة ولكن الانكفاء دون العولمة تخلف والامتثال للمهيمنة تبعية، وعلينا أن نحقق الانفتاح نحو العلوم ونتجنب التبعية

## رابعاً : الوحدة الإسلامية :

التطورات العالمية نحو العولمة تزيد من الوعي بالذات الحضارى وبالمصالح الوطنية الإقليمية لذلك نشطت مع العولمة تيارات التكوينات القومية والإقليمية لتحقيق أقصى درجات الانتفاع بالواقع العالمى الجديد وحماية المصالح الخاصة والحماية من الهيمنة .

## ماذا عن الوحدة الإسلامية ؟

الوحدة المتجسدة فى دولة واحدة لم تعد ممكنة فى المستقبل المنظور، إنها اختفت من الواقع الإسلامى منذ نهاية العهد الأموى فى عام ١٥٠هـ إن مفهوم القيادة العليا الواحدة كما كان متاحاً للخليفة لم يعد وارداً لأن ضوابط العدالة صارت تقتضى أن يكون رئيس الدولة مختصاً بالسلطة التنفيذية، ضمن إطار يحدد مؤسسات السلطة التشريعية والقضائية، وآليات تبسط للشورى والمشاركة على نطاق واسع عبر مؤسسات المجتمع المدنى والصحافة وآليات البحث العلمى والاجتهاد الفكرى والتطور الثقافى، وهى آليات لها دورها ووزنها ووظيفتها القانونية . حتى فى إطار دولة قطرية واحدة لم تعد توجد مؤسسة قيادة شاملة مطلقة إلا فى الدولة الاستبدادية .

إن وجود دولة مختلفة محكومة بنظم دستورية لا يمنع التعامل مع مفهوم السيادة الوطنية بمرونة وتحقيق وحدة فى مجالات عديدة :

١ - فى المجال الروحى والعبادى إذ يمكن للمسلمين الاتفاق على ما يجمع بينهم والتعايش فيما يفرق بينهم على أن يقيموا تنظيمًا موحدًا يقرر بشأن المسائل العقيدية والعبادية ويتخذ تكوينًا جماعيًا شورياً .

٢ - تكوين محكمة استئناف عليا ذات صلاحيات متفق عليها للحكم في قضايا معينة .

٣ - برنامج موحد للتعليم الدينى وتعاون فى كافة المجالات التعليمية. برنامج يحقق التعاون فى مجالات معينة ويفسح مجال التنوع .

٤ - تعاون ثقافى واعلامى.

٥ - تنسيق تنموى وتجارى فى المجال الاقتصادى والتجارى .

٦ - تحديد آليات للحوار الداخلى بين المسلمين وأخرى للحوار مع غيرهم .

إن الإبقاء على تعدد الدول لا يتنافى مع تحقيق درجة عالية من التوحد فى المجالات الدينية، والثقافية، والاقتصادية، والحضارية لبلوغ درجة من الوحدة الإسلامية وترك المجال مفتوحا للتطوير .

### خامسا : التعددية الاجتهادية :

هناك نظرة سلبية جدا لدينا نحو التعددية فى المسائل الاجتهادية. ينبغى أن تكون نظرتنا لكل أنواع التعددية المذهبية والفكرية الإسلامية إيجابية لأنها إحدى نتائج الحرية اللامّة . على أن نلتزم فى هذا الصدد بأمرين هما :

الأول : التسليم بالقطعى وورودا والقطعى دلالة من نصوص الإسلام .

الثانى : تجنب التعصب لاجتهادنا الخاص . والتعامل معه بقاعدة اجتهادنا صواب يحتمل الخطأ ، واجتهادكم خطأ يحتمل الصواب. هذه

النظرية المرنة للتعامل المذهبي مع التراث المنقول ومع العطاء الإنساني ومع الاجتهاد الآخر هو المطلوب لإخراج أنفسنا من الانكفاء ومن التعصب الذميمة .

التعددية فيما عدا وحدانية الذات الإلهية جزء لا يتجزأ من نظام الكون، وينبغي التخلص من النظر إلى فرقة واحدة ناجية فمن كفر مسلماً فقد باء بالكفر أحدهما، ومن اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، وليس من طلب الباطل فأصابه كمن طلب الحق فأخطأه .

إن الإنسان هو محور رسالة الإسلام لإسعاده في الدنيا والآخرة . وكل هداية للإنسان ينبغي أن تراعى عوامل الزمان والمكان. الشريعة الإسلامية تفوقت على الملل والنحل الأخرى لاعترافها بالإنسان كإنسان وتكريمها للإنسان كإنسان، ومراعاتها لظروف المكان والزمان .. إن إهدار هذه المعاني إهدار لمقاصد الشريعة . وللإنسان عشرة مطالب أساسية تفتقر إلى إشباع متوازن هي: المطالب الروحية - الخلقية - العاطفية - المعرفية - المادية - الاجتماعية - البيئية - الجمالية - الرياضية - والترفيهية .

إن الإسلام دين الفطرة - فطرة الله التي فطر الناس عليها - مستبين لتلك المطالب وللضرورة إشباعها إشباعاً موزوناً على المسلمين السعي لتحقيقه اجتهادياً في ظروف الزمان والمكان المختلفة .

## سادسا : الحركة فى الشريعة :

الإسلام عقيدة وشريعة . الشريعة الإسلامية فيها عبادات ثابتة ومفصلة ومعاملات مرنة . منذ عهد الخوارج هناك من جعل أمر السلطة السياسية - الإمرة - كالعبادات - وهذا عين الخطأ الذى وقع فيه الخوارج ومن خلفهم بعد ذلك . علينا أن ندرك بوضوح :

( أ ) أن العبادات مفصلة وثابتة لكن المعاملات معممة ومتحركة .

(ب) الثابت من أحكام الشريعة لا تؤثر فيه عوامل الزمان والمكان . أما المعاملات - أى المتحرك من مقاصد الشريعة فإن الثبات يفسده ويؤدى إلى عكس مقاصده .

(ج) الأمة باجتهادها المستمر مكلفة بتطوير فقه المعاملات على أساس لكل وقت ومقام ولكل زمان وأوان رجال .

فى ظروف معينة ، وأمام زحف التتار على ديار المسلمين اجتهد بعض الفقهاء ورأوا أن حماية بياض الإسلام توجب تقديس المسئولية السياسية ، وعلى نفس النمط اجتهد الشيخ أبو الأعلى المودودى وصاغ مفهوم الحاكمية لله على نحو تشابه لمقولة الإمرة لله .

إن الذين رأوا باجتهاد معاصر أن يعطوا الإمرة أو القيادة السياسية قدسية تناهز قدسية العقائد والعبادات مهدوا للتطرف الإسلامى المعاصر الذى جعل أصحابه السياسى هو موقف الأمة كل الأمة ونفى رأى الآخرين باعتباره كفرا وخروجاً عن ملة الإسلام . هذا الاعتقاد هو الذى مهد للتيارات الاحتجاجية المتطرفة المعاصرة .

نعم إن المسلمين فى محنة ويواجهون اضطهادا عظيما وإذلالا على يد الهيمنة الدولية وإسرائيل . إن أصحاب هذا الاتجاه اعتبروا أنفسهم مبعوثى العناية الإلهية واستحلوا لأنفسهم العمل لاستلام السلطة بالقوة والانفراد بها واستحلوا لأنفسهم استخدام أساليب العنف العشوائى الذى يزهق الأرواح البريئة ويدمر الأملاك فى سبيل تحقيق أهدافهم .

الإمرة لا تكون فى شريعة الإسلام إلا عن طريق: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ الآية (٣٨ - الشورى). والعمل من أجل الأهداف مهما عظمت لا يكون إلا بموجب : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ .. الآية (١٢٥ - النحل) . والقتال فى الإسلام له ضوابطه وهى : الدفاع عن النفس وعن حرية الدعوة. إن ربط الإسلام بالسلطة السياسية المستبدة، وربط العمل الإسلامى بأساليب العنف العشوائى جلب للإسلام ضررا كبيرا وأعطى أعداءه حجة قوية للذيل من ديباجته الوضاعة .

إن علينا معشر أهل القبلة أن نرفض أية عملية استيلاء على السلطة بالقوة القائمة . وأن نرفض أية دولة تقوم على أساس بوليسى يقهر الناس . وأن نرفض أية صلة بين الدعوة للإسلام والعنف العشوائى . وأن نعتبر الاستيلاء على السلطة باسم الإسلام ترهيبا بعيدا عن مقاصد الشريعة، كما نعتبر أية دولة بوليسية قاهرة خارجة على مقاصد الشريعة .

لقد صار نهج الذين ربطوا الإسلام بالاستبداد الغاشم وهم فى السلطة، والذين انتهجوا العنف العشوائى كأسلوب لمعارضة النظم الشرعية، وإن

كانت ظنية، سينة على الإسلام، ووسيلة للإساءة إليه ، ومخلب قط للتدخل الأجنبي ، لذلك وجب علينا أن نتبرأ منهم وندين نهجهم.. هذ طبعاً لا ينطبق على الذين يتخذون العنف أسلوباً لمقاومة الاحتلال الأجنبي، فهم إنما يردون على العدوان بمثله : ﴿فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ الآية : (١٩٣ - البقرة).

إن أسلوب الدعوة المشروع هو بالتى هى أحسن ، والتغيير المشروع هو بالتعبئة الشعبية وبالعمل المدنى الخدمى وبالترجيح الديمقراطى لأن أساليب العنف ضد النظم المؤسسة بشرعية ذات قبول واسع يودى لنتائج عكسية ، لاسيما العنف العشوائى والانقلابات العسكرية التى ما بنت قصراً إلا هدمت مصراً وما ادعت عمل إصلاح إلا أتت أضعاف أضعافه من الإخفاق .

### سابعاً : التحول السياسى :

إن الضغط الإصلاحي المنظم - على كل الأصعدة - من شأنه أن يحقق إصلاحاً ديمقراطياً، وأن تدرج فى النظم القائمة، ودلائل هذا الإصلاح ظاهرة للعيان وكل من سار على الدرب وصل. إن الخريطة الإسلامية على المستوى الشعبى مكونة من :

١ - هيئات ومنظمات وتكوينات تقليدية لها دورها الدينى والثقافى والاجتماعى الإسلامى ولها سندها الشعبى العريض وإن كانت على درجة عالية من الضمور فى حركة تغيير المجتمع .

٢ - جماعات احتجاجية مندفعة انتهجت العنف العشوائي وصار لها درجة من التأييد في مجتمعاتنا ذات الإحساس القوي بالظلم نتيجة الاضطهاد والهيمنة الأجنبية وتكوينها البشرى الذى يغلب عليه الشباب العاطل من العمل . هذه الجماعات جعلت دورها السياسى مقدسا وأسقطت على نفسها دور الأمة وقدمت قيادتها وكفرت المجتمع الواسع .

٣ - مفكرين إسلاميين على درجة عالية من الوعى والاستنارة والالتزام الإسلامى والإحاطة بالفكر الإنسانى والتجارب الإنسانية المعاصرة ولديها مقدرة عالية على استصحاب النافع من فكر وأساليب العصر. لكن هؤلاء مع وضوح رؤيتهم لا يجدون سند الهيئات التقليدية الشعبى العريض ولا تأييد الشرائح المتحمسة الشعبية المندفعة فى تأييد حركات الاحتجاج .

٤ - أنصار الله ينتمون إلى دعوة المهديّة فى السودان . إن مدارس المهديّة فى الإسلام عشر مدارس : ثلاث شيعية هى الاثنى عشرية ، والشيعية ، والزيدية . وأربع سنية هى : صاحب آخر الزمان ، وإمام القرن ، ومدرسة فخر الدين الرازى القائلة بالشاهد لله بالحق ، ومدرسة ابن كثير القائلة باثنى عشر مهديين . ومدرستين صوفيتين : مدرسة ابن عربى والمدرسة القائلة بخاتم أقطاب الزمان ، ومدرسة فلسفية قائلة برئيس المدينة الفاضلة . المهديّة فى السودان سنية ومقولتها تجعل المهديّة وظيفية وهى وظيفة إحياء الكتاب والسنة بصورة ذات خصوصية تجيز لها تعليق المذاهب وإبطال التفرق بين المسلمين عودة للكتاب والسنة .

هذا موقفها المنظري. لكن موقفها من الخريطة الإسلامية الشعبية هو أنها جمعت ما تفرق بين التكوينات الإسلامية فهي ذات موروث شعبي تقليدي عريض، وهي ذات طلائع فدائية متحمسة، وهي ذات كوادرات فكرية مثقفة لذلك يرجى أن يكون لها عطاء إسلام في داخل السودان وفيما يتجاوز السودان داعية لنهج إسلامي ملتزم ومستنير بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة .

إننا في هيئة ثنئون الأنصار المنبر التنظيمي لهذه الدعوة نخاطب أهل القبلة أن حى على الفلاح تلبية لنداء الإسلام نداء المهتدين راجين أن يتخذ كافة أهل القبلة على نحو ما اقترحنا .  
وفقنا الله لمرضاته . آمين .

﴿قل هذا سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني  
وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾

## الصادق المهدي

صاحب العهد مع أنصار الله